الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشّعبية
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلـــوم الإسلامية
قسنطينة – الجزائر–
كليـــة:أصول الدّيـــن
قسم: العقيدة ومقارنة الأديان
شعبة: مقارنة الأديـــان

موقف المسيحية والإسلام من العلم التجريبي في القرون الوسطى

مذكرة مكمّلة لنيل شهادة الماجستير في مقارنة الأديان

إعداد الطالبة:
✧ نسيمة أيت شعيت

إشراف الدكتور:
✧ فاتح حليـــمي

أعضاء لجنة المناقشة	الدرجة	الجامعة الأصلية	الصفة
د.طيبات لمير	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	رئيسا
د.فاتح حليمي	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر	مقررا
د.آسيا شكيرب	أستاذة محاضرة	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا
د.صالح بوجمعة	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا

السنة الجامعية: 1434هـ-1435هـ
2014م-2015م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾
﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾
﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ ﴿الَّذِي
عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا
لَمْ يَعْلَمْ﴾

سورة العلق الآية: (1- 5).

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الإهداء

إلى من علمتني الصبر وحبّ العلم، إلى من وقفت بجانبي تقوّيني بدعواتها،

إلى من علّمتني حبّ اللّه ورسوله ... إليك يا نبع الحنان:

أمّي

إلى من كان لي أبا وأخا وصديقا... إلى من وقف بجانبي ماديا ومعنويا يحفزني لطلب العلم، ويرفع من معنوياتي ويقوي من عزيمتي وإرادتي...إلى:

والدي الكريم رحمه اللّه

إلى زهور حياتي إخوتي: توفيق ، يونس ، عادل ،كهينة ، مخلوف

إلى التي لم تلدها أمي،فأحبها قلبي ، واصطفاها خليلة ، فكانت لي نعم الأخت والصّديقة، إلى ملهمتي ورفيقة دربي " سمية " .

إلى كلّ من يحبّ نسيمة . إلى كل طالب علم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

قبل كل شيء ،أشكر اللّه العليّ القدير ،الذي وفقني لإنجاز هذا العمل.

أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل الدّكتور " فاتح حليسي " الذي بصّرني بنور بصيرته وصفاء فؤاده ،ووجهني توجيه الأب لابنته والأستاذ لطالبته،فلم يبخل عليّ بنصائحه وتوجيهاته القيّمة،وحرصه الشّديد على إتمام هذه المذكرة على أكمل وجه،رغم كثرة التزاماته ومسؤولياته،

فله مني موفور الشكر والتقدير والاحترام.

كما أتقدم بخالص الشّكر وعميق الامتنان إلى السيّدة الكريمة " بريزة داودي " مديرة مكتبة البلدية بولاية قسنطينة ،على ما قدمته لي من دعم ومساندة لإتمام هذه المذكرة.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أوجه شكري وامتناني إلى كل عمال مكتبة " ديلو " ، وعمال مكتبة جامعة منتوري للعلوم الإنسانية والاجتماعية بقسنطينة، على حسن الاستقبال والمعاملة الجيّدة، وتسهيل عملية البحث ،وهذا كله كان له الأثر البالغ في إنجاز هذا البحث .

وفي الأخير أتقدم بالشكر إلى كل من قدّم لي يد العون والمساعدة ،وساهم من قريب أو بعيد في إخراج هذا البحث

على ما هو عليه الآن .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم، وأرسل إلى العرب والعجم، خيرِ رسل الله تعالى، محمّد بن عبد الله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه، وعلى من سار على نهجه إلى يوم لقاه، أما بعد:

يأتي بحثنا الموسوم بـ: "موقف المسيحية والإسلام من العلم التّجريبي في القرون الوسطى"، في وقت أضحى فيه العالم قرية صغيرة .وذلك بسبب التّطوّر العلمي الذي توصلت إليه البشرية عبر تاريخها الطّويل، وعلى هذا الأساس ظهرت العديد من الاتجاهات والأفكار التي تـــدعم العلـــم وتحاول أن تبلغ به أعلى المراتب، ليس هذا فحسب بل وحاولت أن تفصل العلم عن كل مالـــه علاقة بالدّين، على اعتبار أنّ هذا الأخير عائق أمام تطوّر العلم ، فظهر النّزاع بين العلم والدّين، متخذا صورا وأشكالا عديدة ، ومن بين تلك الأشكال ما يتصل بموضوع العلـــــم التّجـــريبي وموقف الدّين منه ، خاصة وأنّها تعدّ المصدر الأساسي لكثير من الحوادث الواقعة في مجال النّزاع بين معطيات الحضارة الجديدة، ومعطيات عالم الأديان، وقد وقع هذا النّزاع التّاريخي بدايـــة في بلاد الغرب، ثمّ امتد إلى العالم الإسلامي وسائر أديان المعمورة، ومردّ ذلك هو طبيعة كل مـــن العلم والدّين. وما يجري في التّاريخ البشري بصورة طبيعية وبمقتضى التّكامل التّاريخي؛ عبارة عن أنّ البشرية قد أنجزت قفزة حضارية وتوصلت إلى كشوفات وإبداعات ومعارف مهمّة، وهـــذه الكشوفات والمعارف الجديدة قد تتعارض في بعض الموارد مع الأفكار الدّينيـــة، وبالتّـــالي فقـــد وضعت القضايا الدّينية تحت تأثيرها وعملت على تغيير رؤية النّاس للدّين والفكر الدّيني، وعلّمتهم أن ينظروا إلى الدّين من خلال قراءة جديدة، فكان للدّين إزاء هذه القراءة الجديدة مواقف معيّنة.

1- إشكالية الموضوع:

إنّ الانطلاق من النّص الدّيني (المسيحية أو الإسلام)، والواقع العلمـــي الـــرّاهن (العلـــم التّجريبي) كمستوى فكري بشري، وطبيعة كل واحد منهما، يدعونا إلى طرح الإشـــكال الآتي: كيف كان موقف الدّين (المسيحية والإسلام) من العلم (التّجريبي)؟، هل كان موقـــف عـــداء وإقصاء؟ وإن كان كذلك ترى ما مسوّغات هذا الإقصاء؟، أم كان موقف قبول وتعايش، وما مدى تأثير هذا التّعايش على صعيد التّقدّم العلمي؟، هل هناك اختلاف بين المسيحية والإسلام في موقفهما من العلم التّجريبي؟ وإن كان كذلك فما وجه الاختلاف بينهما؟

2- أسباب اختيار الموضوع:

يعتبر موضوعي العلم والدّين من المواضيع التي أخذت حيّزا كبيرا من البحث والدّراسة، لما لهما من أهمية كبيرة في حياة الأفراد والمجتمعات، ومن بين الأسباب التي دفعتني للبحث في هـــذا الموضوع ما يأتي:

أ- الأسباب الذاتية:

- ✧ قلة المعارف الشّخصية حول هذا الموضوع .
- ✧ الرّغبة في معرفة الحركة العلمية في القرون الوسطى، ومدى تطوّرها.
- ✧ ما مدى صحة ظلامية العصور الوسطى؟.

ب- الأسباب الموضوعية :

- ✧ التّعمق في دراسة العلم التّجريبي في منظور المسيحية والإسلام، وذلك بعقد مقارنة بين الدّيانتين من حيث تعاملهما مع هذا الأخير، ودورهما في تخلفه أو تقدّمه.
- ✧ الرّغبة في معرفة مصدر موقف المسيحية والإسلام من العلم التّجريب؟ هل هـــو النّص الدّيني ؟ أم رجال الدّين ؟ .
- ✧ الاطلاع على موقف المسيحية والإسلام من العلم التّجريبي، وما مصوّغاته، ومدى تأثيره في العلاقة بينهما.

3- أهداف الدّراسة:

هناك جملة من الأهداف المرجوة من هذا البحث والمتمثلة في الآتي:

- ✧ الكشف عن مكانة العلم التّجريبي في المسيحية والإسلام.
- ✧ كيف تعامل كل من المسيحية والإسلام مع العلم التّجريبي من خلال نصـــوص الوحي؟
- ✧ معرفة أسباب الاختلاف في المواقف في الدّيانتين، إن كان هناك اختلاف.
- ✧ تقريب صورة العلم التّجريبي خلال فترة القرون الوسطى.

4- الدّراسات السابقة:

في حقيقة الأمر بالنّسبة للدّراسات السابقة في موضوع المقارنة بين المسيحية والإسلام وموقفهما من العلم التّجريبي، لم أجد على حد علمي ومطالعتي دراسة مستقلة، وإنّما وجدت دراسات متنوعة توزّعت بين المقالات والكتب. ومن الدّراسات السّابقة فيما يتعلق بالإسلام وجدنا العديد من الدّراسات التي تناولت موقف الإسلام من العلم التّجريبي، ونشير إلى بعض هذه الدّراسات على اعتبار أهميتها ومن بينها:

- ✧ يوسف القرضاوي في كتابه "العقل والعلم في القرآن الكريم"، الذي خصصه للحديث عن مكانة العلم في الإسلام ، وذلك من خلال تطرقه إلى مجموعة من النّقاط على الشّكل الآتي: مكانة العقل والفكر في القرآن، فضل العلم ومنزلة العلماء، العلم والفقه والحكمة، التّعلّم والتّعليم في القرآن، تكوين العقلية في القرآن، الإعجاز العلمي.
- ✧ محمّد حسين محاسنة في كتابه "أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين"، فقد تناول من خلال كتابه هذا نظرة الإسلام للعلم والعلماء ، وتطرق كذلك للحديث عن حركة النّقل والتّرجمة التي عرفها المسلمون ، وتحدث بشيء من التّفصيل عن العلم التّجريبي؛ فذكر العلوم التي برع فيها المسلمون مثل الرّياضيات والفلك والطّب والكيمياء.

أمّا ما يتعلق بالدّراسات المسيحية وجدنا هذا الموضوع مُتضمّنا في كتب بعض المفكرين والعلماء، ونذكر من بين هذه الدّراسات على سبيل المثال:

- ✧ محمّد عبده في كتابه "الإسلام والنّصرانية بين العلم والمدنية"، وهو عبارة عن دراسة مقارنة لموقف كل من المسيحية والإسلام من العلم، بحيث تحدث بالتّفصيل عن أشكال هذا الموقف في كلتا الدّيانتين. فهو بهذا يعطينا تصورا عاما عن موقف كل من المسيحية والإسلام من العلم.
- ✧ زينب عبد العزيز في كتابها " الإلحاد وأسبابه"، فقد تطرقت فيه إلى جملة من المعطيات حول موقف المسيحية من العلم والعلماء، بحيث أبرزت فيها اضطهاد الكنيسة للعلم والعلماء، وكشفت عن الجرائم التي مورست ضدهم باسم الدّين.

5- مناهج البحث:

المنهج الوصفي:

الذي يهتم بوصف الأحداث وجمع الحقائق والملاحظات عنها ، واستخدمت هذا المنهج في الدّراسة لجمع المعلومات عن العلم التّجريبي في الدّيانتين المسيحية والإسلام خلال فترة القـــرون الوسطى.

المنهج المقارن:

فقد سلكته لمعرفة أوجه الشبه والاختلاف والتّداخل، أو لإبراز الاختلاف الموجـــود بـــين المسيحية والإسلام في موقفهما من العلم التّجريبي في العصور الوسطى.

6- صعوبات البحث:

طبيعة البحث تتطّلب الإلمام بمجموعة من الآليات والعلوم، التي وجدت نفسي في حاجة إلى تعميق البحث فيها. وهو ما جعل الأمر من الصّعوبة بما كان، كما أنّ اتّساع الموضوع وشمولـــه عسّر عليّ جمع أطرافه والتّحكّم فيها في خطة واحدة (الجانب الإسلامي)، هذا بالإضافة إلى بعض الصّعوبات المتعلّقة بالمصادر والمراجع مرة من جهة الحصول عليها، والأخرى من جانب الاستفادة منها فيما يخدم البحث (الجانب المسيحي).

7- حدود البحث:

ويقع الموضوع المدروس في هذا البحث خلال المرحلة الواقعة بين القرن الخامس الميلادي والقرن الخامس عشر الميلادي (ق 5 م– ق 15 م)، وهي مرحلة غنية بالأحـــداث السّياســـية والعسكرية والاجتماعية والثّقافية، ولكن التّركيز في هذا البحث سيكون بالدّرجة الأولى علـــى النّاحية الثّقافية والعلميّة (العلم التّجريبي) في منظور المسيحية والإسلام.

8- خطة البحث:

يتكوّن البحث من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وفهارس متنوعة.

الفصل الأوّل: ضبط المصطلحات وتحديد المفاهيم.

فقد خصصته لضبط المصطلحات الواردة في البحث، وتحديد مفاهيمه الأساسية، كما عرّجت على موقف الحضارات القديمة من العلم التّجريبي.

الفصل الثّاني: موقف المسيحية من العلم التّجريبي في القرون الوسطى.

فقد تناولت فيه أولا: مدلول العلم في النّصوص الدّينية المسيحية، ثمّ تعرضت للأوضاع العامة في أوربا أثناء العصور الوسطى. ثانيا : تطرقت إلى الحديث عن رجل الدّين ودوره في حياة المجتمع المسيحي، ثمّ انتقلت للحديث عن موقف الكنيسة من العلم والعلماء ودورها في ظلامية العصور الوسطى، ومدى تأثير هذا الاضطهاد على مجتمع القرون الوسطى. ثالثا: تناولت النّقد اللاّذع الموجّه إلى الكنيسة، والحركات الإصلاحية التي ظهرت آنذاك. وأخيرا تطرقت إلى اهتمام الكنيسة بالعلم وتشجيعها له، وذلك بإنشاء المدارس والجامعات، ورفع مستوى التّعليم.

الفصل الثّالث :موقف الإسلام من العلم التّجريبي في القرون الوسطى.

تناولت فيه موقف كل من القرآن الكريم والسّنة النّبوية الشّريفة من العلم ، ثمّ تطرقت للحديث عن تشجيع المسلمين لحركة النّقل والتّرجمة من اللّغات الأجنبية إلى اللّغة العربية، بعدها تناولت الإنتاج العلمي لدى المسلمين والمتمثل في المنهج التّجريبي والتّراث العلمي الذي تركوه لنا. وأخيرا عرّجت للحديث عن إسهامات الحضارة الإسلامية في الحضارة العالمية، وذلك بالحديث عن طرق انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا، وأثر هذه الحضارة في أوربا.

خاتمة: قدمت فيها أهم نتائج البحث المتوصل إليها.

وفي الأخير نسأل اللّه أن يلبس هذا البحث حلل الرّضا والقبول.

واللّه المستعان والهادي إلى سواء السّبيل.

الفصل الأول

ضبط المصطلحات

و

تحديد المفاهيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: مفهوم " الموقف من العلم التّجريبي"

تخضع التّعريفات – غالبا – لمفهومين ، أحدهما لغوي والآخر اصطلاحي، فالأوّل يُعني ببيان المعنى المراد من ظاهر اللّفظ، عند علماء اللّغة فقط، أمّا الثّاني فيُعني ببيان ما تواضع عليه أرباب العلم لموضوع التّعريف من تحديد دقيق يجمع كل مسائله حتى لا يتخلّف منها شيء ، ويمنع من دخول مسائل العلوم الأخرى فيه ، وهو ما يعبّر عنه المنطقيون بالتّعريف الجامع المانع،و يُعنى هذا الفصل بضبط المصطلحات التي يشتمل عليها عنوان البحث ، وهذا نظرا لأهمّية تفتيت المصطلحات على اعتبارها تمثل وعاء للأفكار والدّلالات.

وعلى هذا الأساس، فإنّ الغرض من ضبط هذه المفاهيم والوقوف على هذه التّصورات، هو: معرفة النّتائج المنهجية والمعرفية التي تتيح لنا ربط هذه المصطلحات بالسّياق العام للبحث.

المطلب الأول: تعريف الموقف

أ– في اللّغة العربية :

إنّ مصطلح (موقف) من الفعل الثّلاثي وقف يقف موقفا ، وبالعودة إلى معاجم اللّغة العربية وقواميسها، نجد أنّ لهذا المصطلح دلالات عديدة ، منها ما جاء في لسان العرب" الموقف:الموضع الذي تقف فيه حيث كان "[1]. و الموقف هنا يدل على الموضع الذي يقف فيه الإنسان حيث كان، مثل الوقوف على الرّصيف، الوقوف أمام المسجد،محطة القطار...إلخ.

ويعرّف كذلك ابن فارس الموقف بقوله:"موقف الإنسان وغيره، حيث يقف.ويقال للمرأة أيضا حسنة الموقفين، وهما الوجه والقدم[2]. و من خلال هذا التّعريف يتّضح لنا أنّ الموقف لا يقتصر على معنى واحد، بل يحتمل عدة معان تتحدّد على حسب السّياق الذي وضعت فيه.

---

[1]– جمال الدّين أبو الفضل محمّد بن مكرم ابن منظور،لسان العرب،تحقيق:عامر أحمد حيدر،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان،2005م.ج5، ص 750.

[2]– أحمد ابن فارس بن زكريا،مجمل اللّغة لابن فارس،تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان،ط2،مؤسسة الرّسالة ،بيروت،لبنان، 1986م ،ج1، ص934.

كما عرّف معجم اللّغة العربية المعاصر الموقف فقال:" موقف (مفرد): جمع مواقف، اسم مكان من وقف وهو تهيأ عقلي لمعالجة تجربة أو أمر من الأمور تصحبه عادة استجابة خاصة،"موقف محرج/وديّ/سلبي-الموقف متوتر- " [1]. و يتّضح لنا من خلال هذا التّعريف أنّ الموقف في اللّغة عبارة عن ردة فعل تجاه أمر معيّن، تصحبه عادة استجابة خاصة ؛إمّا بالسّلب كالرفض،والإصرار،والإقصاء...، أو بالإيجاب كالقبول، والانصياع، والموافقة...، وقد يكون للموقف معنى آخر، بحيث جاء في" الموسوعة العربية الميسّرة والموسّعة" "الموقف":" هو العلامة بين الشّخصية والبيئة والآخرين خلال زمان ومكان معينين، فالموقف هو العوائق وتصرف الشخصية إزاءها"[2]. وعليه فإنّ الموقف عبارة عن تصرف الشخص تجاه عوائق وصعوبات تعترضه في حياته، وهذه العوائق قد تكون معنوية وقد تكون مادية.

و من خلال ما سبق عرضه يتّضح لنا أنّ معاني الموقف تدور حول الموضع (مكان الوقوف)، الحكم على الشيء بالسّلب أو الإيجاب،التّصرف إزاء العوائق...، وغيرها من المعاني التي تتحدد على حسب السّياق الذي وضعت فيه كما ذكرنا آنفا.

ب – في الاصطلاح :

كما يختلف معنى الكلمة في اللّغة العربية باختلاف استعمالها،كذلك يختلف معنى مصطلح "الموقف" باختلاف استعماله، فمثلا معنى قولهم ما موقف فلان من كذا ؟ أي: ما رأيه في كذا؟

وإذا رأيت فلان فما موقفك ؟ أي: ماذا يكون رد فعلك تجاهه ؟، وموقف الطّائفة الفلانية من مسألة كذا، أي: مذهبهم فيها.وموقف الإسلام من كذا، أي:حكمه فيه؛ فموقف الإسلام من الشّرك مثلا: هو حكمه فيه،بأنّه من الكبائر، من نواقض الإيمان...، ونحو ذلك من الأحكام الشرعية.

ومن خلال ما تقدم، يتّضح لنا أنّ مصطلح "الموقف" يحتمل عدة معاني، تختلف هذه الأخيرة باختلاف استعمال المصطلح. وعليه يمكن صياغة تعريف " الموقف " انطلاقا من عنوان

---

[1] – أحمد مختار عبد الحميد،معجم اللّغة العربية المعاصر،ط1،عالم الكتب، القاهرة ،مصر، 2008م ،ج3، ص2485.

[2] – ياسين صلاواتي،الموسوعة العربية الميسّرة والموسّعة،ط1،مؤسسة التّاريخ العربي،بيروت،لبنان، 2001م، مج7،ص3395.

بحثنا، على أنّه:كيفية التّعامل مع مسألة من المسائل، أو أمر من الأمور، و هذا التّعامل يأخذ أشكال عديدة قد تكون إيجابية، سلبية، محايدة، معارضة، مؤيدة...، وهذا ما سنحاول الكشف عنه من خلال دراسة موقف كل من المسيحية والإسلام من العلم التّجريبي في الفصول القادمة إنشاء اللّه.

المطلب الثّاني: تعريف العلم

أ- في اللّغة العربية:

إنّ أصل مصطلح (العلم) من الفعل الثّلاثي علم يعلم علما، وبالعودة إلى معاجم اللّغة العربية وقواميسها، نجد للمصطلح دلالات عديدة ، منها ما جاء في تاج العروس، إذ يُعرّف الزبيدي العلم بقوله:" علمه كسمعه علما،عرفه،وعلم به أي شعر،وهذا صريح في أنّ العلم والمعرفة والشعور بمعنى واحد،وأنّه يتعدى بنفسه في المعنى الأول،وبالباء إذا استعمل بمعنى شعر"[1].

والملاحظ من خلال هذا التّعريف أنّه لا يفرّق بين العلم والمعرفة؛إذ جعلهما يُؤديان نفس المعنى، لكن هناك من يُفرّق بين العلم والمعرفة من النّاحية اللّفظية والمعنوية، كابن القيم الجوزية، إذ يرى أنّ فعل العلم يقتضي مفعولين كما في قوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ** ﴾[2]، أمّا فعل المعرفة فيقع على مفعول واحد كقولنا:عرفت الدّار،عرفت زيدا،وكقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾[3]، أمّا الفرق المعنوي فهو أنّ المعرفة تتعلق بذات الشّيء والعلم يتعلق بأحواله،فنقول:عرفت أباك ،وعلمته صالحا عالما،ولذلك جاء الأمر في القرآن الكريم بالعلم دون المعرفة،كقوله تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ**

---

[1]- محمّد مرتضى الزبيدي،تاج العروس من جواهر القاموس،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007م، مج17، ص73.

[2]- سورة الممتحنة : الآية 10.

[3]- سورة البقرة :ا لآية 146؛سورة الأنعام : الآية 20.

﴿لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾[1].وعليه فالمعرفة:حضور صورة الشّيء ومثاله العلميّ في النّفس، والعلم:حضور أحواله وصفاته ونسبتها إليه.

فالمعرفة إذن تشبه التّصور والعلم يشبه التّصديق[2]. و من خلال ما سبق يتّضح لنا أنّ المعرفة أوسع وأشمل من العلم، تتضمّن معارف علمية وأخرى غير علمية، والتّمييز بينهما ينبني على أساس قواعد المنهج وأساليب التّفكير، التي تُتّبع في تحصيل المعارف .لكن هناك من لا يفرّق بين المعرفة والعلم ،وجعلهما يؤديان نفس الغرض.

ويعرّف كذلك ابن منظور العلم فيقول:" العلم نقيض الجهل،علم علما(...)وعلمت الشّيء أعلمه علما "[3]. أي بمعنى أنّ الخروج من ظلمة الجهل لا يتمّ إلاّ بالعلم ، وبه يرتقي الإنسان وتتحقق إنسانيته. وجاء في المعجم الوسيط:" العلم إدراك الشّيء بحقيقته "[4].و من خلال هذا التّعريف نتساءل هل يمكن للعلم إدراك جميع حقائق الأشياء؟ أم أنّه يدرك بعض الحقائق دون الآخر؟.

وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللّغة:" العين واللام والميم أصل صحيح واحد،يدل على أثر بالشّيء يتميّز به عن غيره.من ذلك العلامة،وهي معروفة يقال:علّمت على الشّيء علامة.

ويقال: أعلم الفارس، إذا كانت له علامة في الحرب"[5]. يتضح من خلال هذا التّعريف أنّه أعطى للعلم تعريفا ضيّقا؛ اقتصر على مجرد تمييز الأشياء عن غيرها بعلامة معيّنة، لكن العلم أوسع وأشمل من هذا التّعريف. وجملة القول: العلم هو محاولة إدراك الشّيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا .لكن هذا التّعريف لا يؤخذ على إطلاقه ، على اعتبار أنّ العلم نسبيّ وليس مطلق.

---

[1] – سورة محمّد : الآية 19.

[2] – ابن القيم الجوزية، مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين،تحقيق:محمّد المعتصم باللّه البغدادي،ط3،دار الكتاب العربي،بيروت،لبنان، 1996م ،ج2، ص314.

[3] – ابن منظور،لسان العرب،مصدر سابق،مج 3، ص 3038.

[4] – المعجم الوسيط،إصدار مجمع اللّغة العربية،إشراف وتقديم:شوقي طيف،ط4،مكتبة الشّروق الدولية،القاهرة،مصر،2004م، ص654.

[5] – ابن فارس،معجم مقاييس اللّغة،تحقيق عبد السّلام محمّد هاروي،ط3،مكتبة الخانجي،القاهرة ،مصر،1981م ،ج4، ص109.

وأمّا معنى العلم في المعاجم اللّغوية الغربية ، فيكفي أن نورد مثالا على ذلك بما ورد في قاموس "ويبستر الجديد" " Webster New Twentieth Centary of Englis Language" العلم هو: المعرفة المنسقة" Sgstematized knawladge " التي تنشأ عن الملاحظة والدّراسة والتّجريب والتي تتم بغرض تحديد طبيعة أو أسس وأصول ما تتم دراسته[1].

ومما يمكن ملاحظته من خلال هذا التّعريف ، أنّه ركّز على ما يخضع للملاحظة و للتّجريب فقط، بمعنى كل ما هو مادي يمكن مشاهدته وإخضاعه للتّجربة ،متجاهلا بذلك كل ما هو غيبي لا يخضع للتّجربة كالحياة الأخرى مثل الجنة والنّار والقيامة...، وهو بذلك يعطي للعلم تعريفا ماديا محضا.

ب- في الاصطلاح:

1- عند المسيحيين:

في إطار الفكر الغربي تقابل لفظة "علم"، الكلمة الإنجليزية "Science " ذات الجذر اللّاتيني "Scientia "، وفي اللّغة الفرنسية " Science "، وتطلق كلمة " Scientist " للدّلالة على هؤلاء العلماء الذين يهتمون بدراسة الوقائع المشاهدة، للوصول إلى القوانين التي تحكمها. وفي رأي كوهن ونجل " Cohen And Nagel "، أنّ كلمة " علم " إنّما تشير إلى المعرفة العامة المنظمة المُصاغة في قضايا محددة،وكلها تكون مستنبطة من مبادئ عامة، ويرتبط هذا في نظرهما باتّباع المنهج العلمي، حيث أنّ الملامح المختلفة للمنهج العلمي يمكن رؤيتها بوضوح كلما تقدم العلم بإطراد.[2]

ولاشك أنّ التّقدم العلمي الذي يُشيران إليه، إنّما يبدو في الصّياغة الأكثر دقة وإحكاما لقضايا تمّ استنباطها واختبارها بواسطة المنهج العلمي، الذي قد يتطوّر هو الآخر في ضوء اعتبارات عديدة منها التّقدم التّقني وتطوّر نظرة الإنسان إلى الطّبيعة والمبادئ المنطقية

[1]- نقلا عن:أحمد بدر،أصول البحث العلمي ومناهجه،ط5،دار المعارف،القاهرة،مصر،1989م، ص 14- 15.

[2]- Cohen (M) & Nagel (E) :An Inraduction To Logic And Scitific Thodو.Broce & World Inc,New York And Burlingame 34,Ch,x,P.141.

والرّياضية...، وممّا يمكن الإشارة إليه أنّ جلّ التّعاريف الاصطلاحية للعلم في إطار الفكر الغربي، لا يخرج مضمونها عن ما يأتي:

- أنّ العلم :هو تلك الدّراسة المباشرة للواقع، يهدف إلى صياغة قوانين كميّة،يمكن التّحقق منها.
- إتّباع مناهج صارمة،يتمّ بواسطتها اختبار صدق المعرفة المنشودة.
- التّوكيد على العلم الطّبيعي،الذي يعتمد على التّجربة والملاحظة.
- صياغة العلم ضمن رؤية كونية.

وعلى ما تقدم، فليس هناك اتّفاق بين الغربيين حول مفهوم العلم اصطلاحا، إنّما هناك في الحقيقة مفاهيم للعلم، فمنهم من ركّز على تعريفه من الوجهة المعرفية من حيث هو:كل منظم من المعرفة التي تتضمّن الحقائق والمفاهيم، والقوانين والنّظريات والمبادئ. ومنهم من عرّفه باعتباره طريقة للبحث والتّفكير، على اعتبار قيامه على منهج علميّ واضح.في حين ذهب آخرون إلى اعتباره تلك المعرفة العلمية المحصورة في نطاق الحس والمشاهدة،التي يُراد التّعرف إليها بطريقة علمية معينة،وفق أسس وقواعد[1].

2- عند المسلمين:

يعرّف الجرجاني العلم بقوله:" هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع (...) وهو صفة راسخة يدرك بها الكليات والجزئيات، وقيل هو وصول النّفس إلى معنى الشّيء "[2]. نلاحظ من خلال هذا التّعريف أنّه أعطى للعلم صفة الإطلاقية، واعتبر كل ما يدركه العلم جازما،فهو بهذا يجعل كل المعارف التي توصل إليها الإنسان معارف يقينية، متجاهلا بذلك قصور العقل البشري في إدراكه لجميع الحقائق؛ وبالتّالي نسبية المعارف التي ينتجها.

---

[1]- Gregory N.Derry,What Science Is And How It Woorks,2nd Edition, USA,1997,p107. Princeton University Press,

[2]- الشّريف الجرجاني،التّعريفات،تحقيق :جماعة من العلماء بإشراف النّاشر،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان،1983م،ص137.

أمّا التّهانوي فقد أسهب في بيان المفهوم الاصطلاحي للعلم،فأورد إطلاقات مختلفة تتضمّن الإدراك سواء أكان تصوّرا أم تصديقا[1].

وعلى هذا الأساس، فالعلم يشتمل في الثّقافة الإسلامية على ما يدركه الإنسان من تصوّرات وتصديقات، سواء كانت يقينية أم غير يقينية؛ فكل المعارف الإنسانية المنظمة هي علوم مهما كان مصدرها، سواء كان العقل كالرّياضيات والمنطق، أم الحس والتّجربة بالإضافة إلى العقل كالطب والفيزياء والفلك، أم كان الذّوق والخيال والعاطفة كالأدب، أم الوحي والنّبوة كعلوم الدّين.

أمّا في الثّقافة الغربية الحديثة، فقد اتّخذت كلمة" العلم "منذ القرن الثّامن عشر معنى أضيق وأدق؛ فكل معرفة لا يتوفر فيها اليقين والصحة الكلية ولا تقوم على الحس والتّجربة، لا تعتبر علما. وهذا التّحديد للعلم يتجاهل تميّز كل نوع من أنواع المعرفة بطريقته ووسائله للوصول إلى حقائقه وموضوعاته[2].

ويتّضح لنا ممّا سبق أنّ العلم في الثّقافة الإسلامية يكون مصدره الحس(التجربة) والغيب (الوحي)، أمّا في الثّقافة الغربية فمصدره الحس والتّجربة فقط.

---

[1]- محمّد بن علي التّهانوي،كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم،تحقيق:علي دحروج،ط1، مكتبة ناشرون،بيروت، لبنان، 1996م، ج4،ص1055.

[2]- محمّد المبارك،الإسلام والفكر العلمي، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1978م، ص 15.

المطلب الثّالث: تعريف التّجريب

أ- في اللّغة العربية:

إنّ مصطلح (تجريب) من الفعل الثّلاثي جرّب يجرّب تجريبا أو تجربة، وبالعودة إلى معاجم اللّغة العربية وقواميسها، نجد للمصطلح دلالات عديدة منها ما جاء في القاموس المحيط: "التّجربة من الفعل جرّب،جرّبه تجربة:اختبره، ورجل مجرّب:عرف الأمور وجرّبها،ودراهم مجرّبة:موزونة"[1].

وجاء في تاج العروس:"جربه تجريبا، على القياس و(تجربة) غير مقيس: اختبره،وفي (المحكم): التّجربة من المصادر المجموعة ويجمع على التّجارب والتّجاريب ".

قال النّابغة الذبياني: إلى اليوم قد جُرّبن كل التّجارب(...) ، والمجرّب هو الذي جرّب في الأمور وعُرف ما عنده[2]. و من خلال هذين التّعريفين يتضح لنا أنّ التّجربة تعني الاختبار.

والتّجربة: هي ما يحصل من المعرفة بالتّكرر،وقيل التّجربة:" معالجة الشّيء مرّة بعد أخرى حتى يحصل ذلك العلم بنظائرها "[3]. وهذا يعني أنّ التّحقق من صحة التّجربة يحتاج إلى عملية التّكرار.

ب- في الاصطلاح:

عرّف معجم الأفكار والأعلام التّجربة بقوله:" اختبار عملي في العلوم، يتم إجراؤه بقصد التّوصل إلى نتائج ذات علاقة بنظرية ما أو مجموعة نظريات "[4]. و كذلك عرّف الجرجاني

---

[1]- مجد الدّين أبو طاهر محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط،تحقيق: مكتب تحقيق التّراث في مؤسسة الرّسالة،ط8، مؤسسة الرّسالة للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، 2005م،ص67.

[2]- محمّد مرتضى الزبيدي،تاج العروس من جواهر القاموس،مرجع سابق،ج2،ص154.

[3]- زين الدّين محمّد بن علي بن زين العابدين الحدادي،التّوفيق على مهمات التّعاريف،ط1،عالم الكتب 38 عبد الخالق ثروت،القاهرة،مصر،1990م،ص91.

[4]- هتشنسون،معجم الأفكار والأعلام،ترجمة:راشد الجيوشي،ط1،دار الفارابي،بيروت، لبنان،2007م، ص112.

التّجربة بقوله:" هي ما يحتاج العقل فيه في جزم الحكم إلى تكرر المشاهدة مرّة بعد أخرى،كقولنا: شرب السقمونيا "[1] يسهّل الصفراء، وهذا الحكم إنّما يحصل بواسطة مشاهدات كثيرة "[2].

وعرّف المعجم الوسيط التّجربة بقوله:" التّجربة (في العلم) اختبار منظم لظاهرة أو ظواهر يُراد ملاحظتها ملاحظة دقيقة ومنهجية للكشف عن نتيجة ما أو تحقيق غرض معيّن "[3]. والتّجربة قد تكون كلية وذلك عندما يكون بتكرر الوقوع، بحيث لا يحتمل معه اللاّوقوع، وقد تكون أكثرية وذلك عندما يكون بترجيح طرف الوقوع مع تجويز اللاّوقوع[4].

ومن خلال ما سبق يمكن صياغة تعريف"العلم التّجريبي" بأنّه: "حقل من حقول الدّراسة أو المعرفة، يهدف عن طريق التّجربة والملاحظة والاستنتاج إلى التّوصل إلى تفسيرات لظواهر طبيعية في الكون"[5]. ويستعمل هذا المصطلح " العلم التّجريبي " في بعض الأحيان للدلالة على البحث العلمي الذي يركز على تطوير التّقنية"[6]، ويُعرّف كذلك: "بأنّه معرفة تراكمية تقدمية؛ أي لا تعود إلى موضوعات سبق بحثها والتّوصل إلى قوانينها، وهذه المعرفة تبدأ بالإدراك الحسي للظواهر،كلما تيسّر ذلك من الناحية المعرفية، وتنتهي أيضا بالإدراك الحسي منطقيا عند التّحقق من الفروض"[7].

---

[1]- هو اسم لصمغ راتنجي يسمى " محمودة "،نباته معمر وجذره مستطيل مغزلي لحمي لبني غليظ،ينبت في جزائر اليونان " كساموس " و"رودس" وغير ذلك.كان أكثر استعماله للإسهال،وهو من العلاجات الشديدة الفعل الضّارة في كثير من الأحوال،فيجب عدم التعويل عليه فربما كان ضره أشد من نفعه.راجع:(محمّد فريد وجدي،دائرة معارف القرن العشرين،ط3،دار المعرفة للطّباعة والنّشر،بيروت،لبنان،1971م،مج5،ص 198 – 201).

[2]- الجرجاني،التّعريفات،مرجع سابق،ج1، ص202.

[3]- المعجم الوسيط،مجمع اللّغة العربية بالقاهرة،تحقيق: إبراهيم مصطفى وآخرون،دط،دار الدعوة،القاهرة ،مصر،دت،ج1، ص114.

[4]- محمّد علي التهانوي،موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم،مرجع سابق،ج1، ص 381.

[5]- هتشنسون،معجم الأفكار والأعلام،مرجع سابق، ص 313.

[6]- الموسوعة العربية العالمية،ط2،مؤسسة أعمال الموسوعة للنّشر والتّوزيع،الرّياض،السّعودية،1999م،ج16، ص 368.

[7]- بدوي عبد الفتاح محمّد،فلسفة العلوم الطّبيعية،ط1،دار المسيرة للنّشر والتّوزيع والطّباعة،عمان،الأردن،2011م، ص40.

وعليه فالعلم التّجريبي يقصد به في بحثنا هذا، جملة العلوم التي تهدف عن طريق التّجربة والملاحظة والاستنتاج إلى التّوصل إلى تفسيرات لظواهر طبيعية في الكون، كالرّياضيات والفيزياء والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم التي تعتمد على التّجربة.

المبحث الثّاني: لمحة عن تاريخ العصور الوسطى

المطلب الأول: مفهوم العصور الوسطى

أطلق اسم " **القرون الوسطى** " أو " **العصر الوسيط**" على الفترة الممتدة مابين الغارات البربرية الكبرى في القرن الخامس، وبين فجر النّهضة الأوروبية الحديثة في القرن الخامس عشر الميلادي، لكن رجال "العصر الوسيط "لم ينتبهو لهذه التّسمية ؛لأنّهم كانوا يشعرون،كما نشعر نحن اليوم، بأنّهم يعيشون في عصر يعتبر نهاية لتطوّر سابق، وبأنّهم رجال عصرهم. فالتّاريخ بالنّسبة لهم عصران:العصر القديم الرّاحل،والعصر الحديث الذي يعيشون فيه.

وفكرة مفهوم " **القرون الوسطى** "لم تظهر قبل القرن الخامس عشر الميلادي ، بل بدأت بالظهور والاتّساع منذ القرن الخامس عشر، وخاصة في القرن السادس عشر الميلادي ، و لم يستقر هذا التّعبير " **العصر الوسيط**" إلاّ منذ أن دخل المناهج المدرسية،وأصبح تعبيرا رسميا ومستعملا في كتب الغرب الأوروبي، ولقد أخذ العرب هذا الاصطلاح، واستعملوه في كتبهم ومناهجهم.وهذا يعني أنّ العرب ليسوا هم من أحدث هذا الاصطلاح، ولهذا السّبب لم نجد دراسات عن " العصور الوسطى " سواء من ناحية التّعريف " **العصور الوسطى** " أو من ناحية تحديد بداية ونهاية العصور الوسطى الإسلامية.

ويعتبر" الأدباء الإنسانيون" أول من ا ستعمل كلمة " **العصور الوسطى** "، وبخاصة في النّصف الثّاني من القرن الخامس عشر، وغالبا في القرن السادس عشر الميلادي، ثمّ تبنّاها بعد ذلك المؤرخون في القرن السابع عشر، وأشاعوا استعمالها[1].

[1]- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوربة، دط، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1982م، (راجع المقدمة).

ويعرّف كذلك أطلس تاريخ العالم "**العصور الوسطى**" على أنّها: مرحلة من تاريخ الغرب،جعلها المؤرخون تبدأ من عدة تواريخ قديمة (395م،406م،410م،476م،...)، وتنتهي إمّا في1453م،وهو تاريخ سقوط القسنطينية على يد العثمانيين،ونهاية الإمبراطورية البيزنطية،وإمّا في1492م،وهو تاريخ اكتشاف أمريكا من قبل "كريستوفر كولومبس"[1].

ويقسّم تاريخ العصور الوسطى إلى مرحلتين كبيرتين،الأولى: من القرن الخامس حتى منتصف القرن العاشر الميلادي، وتتميّز بالاتّصال بين الشّعوب، واحتواء الكنيسة للأفراد والحياة الاجتماعية، الإصلاح الكنسي...، أمّا الثّانية: من منتصف القرن العاشر إلى القرن السادس عشر (النّهضة الأوروبية)، امتازت بتحرّر البشرية الأوروبية تدريجيا من سلطة الدّين،تراجع الكنيسة أمام الفكر العلماني، تحّرر السّلطات العامة والعلوم والفنون والسّياسة والاقتصاد [2].

ويطلق على " **العصور الوسطى** " كذلك مصطلح " **العصور المظلمة** "، وهو اصطلاح تاريخيّ يُطلق على وصف فترة من فترات العصور الوسطى في أوروبا. وتشير كلمة مظلمة إلى الغياب المفترض في حقل المعرفة خلال تلك الحقبة، حيث كانت القرون الأولى من العصور الوسطى، خاصة من القرن الخامس إلى أواخر القرن العاشر الميلاديين أقرب إلى أن تكون مظلمة، حيث أصيبت حضارة غربي أوروبا بالانحطاط، ولم يتبق من معرفة الرّومان القدامى سوى ما بقي في قلة قليلة من مدارس الأديرة والكاتدرائيات والبلاط. أمّا المعرفة التي نُقلت عن اليونانيين فقد اندثرت تقريبًا. وكان الذين تلقوا العلم فئة قليلة من النّاس، كما ضاع الكثير من المهارات الفنية والتقنية القديمة. وأمسى الكُتّاب في جهالتهم، يتقبّلون الحكايات الشّعبية والشّائعات على أنّها حقيقة[3].

[1]-Michel Miurre,Dictionnaire EncyclopédiqueD`histoir,Bordas,1986,P3179-3180.

[2]- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبة، مرجع سابق، (راجع المقدمة).

[3]- الموسوعة العربية العالمية،مرجع سابق، ج 16،ص 288.

لكن هذا المفهوم عن العصور الوسطى لم يبق على حاله، بل اتّخذ مفهوما جديدا بعد الأبحاث التّاريخية التي قام بها المؤرخون في هذه الحقبة التّاريخية وتبيّنت الجوانب الحضارية لمجتمع أوربا في العصور الوسطى، وهي الحضارة التي ارتكزت عليها العصور الحديثة في أوربا[1].

بالإضافة إلى مصطلح " **العصور المظلمة** "، يطلق كذلك على **العصور الوسطى** مصطلح " **عصور الإيمان** " "Ages of Faith"، وذلك لتغلّب الدّين ورجاله على كافة جوانب الحياة. وفي تلك العصور اتّصف التّعليم بطابع ديني واضح، بحيث صار محوره الإنجيل واللّاهوت، ودراسة أقوال القدّيسين وتراثهم، وهذا أدى إلى عدم ترك مجال للدّراسة العملية والعلوم التّجريبية، لأنّ العقيدة المسيحية – كما قال المعاصرون – تقوم على الإيمان في حين يعتمد العلم على التّعقل[2].

وجملة القول أنّه مهما تعدّدت تسميات العصور الوسطى(القرون الوسطى، العصور المظلمة، عصور الإيمان...)، وكذا تحديد تاريخ ظهور المصطلح، إلاّ أنّها تمثّل فترة من فترات تاريخ أوربا الطويل، والتي تمتدّ من القرن الخامس الميلادي إلى القرن الخامس عشر الميلادي.

المطلب الثّاني: بداية العصور الوسطى

شغلت فكرة تحديد بداية ونهاية العصور الوسطى في أوربا بال الكثير من المؤرخين، وأصبحت من الصعوبة لكثرة الأحداث والمعالم التّاريخية الهامّة التي شهدتها أوربا في هذه المرحلة الحافلة من تاريخها، وثار حول هذا التّحديد الكثير من الجدل بين المؤرخين و لم يتمّ التّوصل فيها إلى نتيجة قاطعة، وتحديد بداية ونهاية العصور التّاريخية إنّما هي محاولة اجتهادية الغرض منها تسهيل دراسة العصور المختلفة وتفهيمها للقارئ قدر الاستطاعة.

وعلى أيّة حال، فتحديد بداية ونهاية القرون الوسطى ليس بالعملية المستحيلة، فقد اجتهد المؤرخون على وضع القرون الوسطى الأوروبية في الفترة التي تقع بين التّاريخ القديم والتّاريخ الحديث.

---

[1] – محمود سعيد عمران،تاريخ أوربا في العصور الوسطى،ط1،دار النّهضة العربية،بيروت، لبنان،2006م، ص14.

[2] – سعيد عبد الفتّاح عاشور،بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته،ط1،عالم الكتب،القاهرة،مصر،1987م،ص 585- 586.

ومن خلال هذا المطلب سنحاول عرض أهم الآراء حول بداية العصور الوسطى، وذلك بتناول جملة من العوامل التي يُعتقد أنّها تمثل بداية وانطلاقة هذه العصور، ويمكن أن نجملها في الآتي:

أولا: العوامل السّياسية

يرى بعض المؤرخين أنّ سنة "284م " هي بداية تاريخ العصور الوسطى في أوربا، ونهاية الإمبراطورية الرّومانية،ومرجع اختيار هذه السنة هو: اعتلاء الإمبراطور الرّوماني "دقلديانوس"[1] "Dicoletia" (284م- 305م) عرش الإمبراطورية الرّومانية، وتنظيمها من جديد على أسس سياسية وإدارية ودينية جديدة، حيث أبقى على روما عاصمة للإمبراطورية، واستقر في"نيكوميديا" "Nicomedia"وقام بإجراءات اضطهادية ضد المسيحيين واعتبر نفسه إلها.هذه الإجراءات يعتبرها البعض حدا فاصلا بين القديم والوسيط في أوربا حيث «كان دقلديانوس خير نموذج للحاكم الأوتقراطي، الذي أراد أن يجمع السّلطة المركزية كلها في يده ويشرف بنفسه وجهازه البيروقراطي على كل صغيرة وكبيرة في الدّولة،وقد سعى جاهدا ليحقق ذلك ونجح فيه، ومن ثمّ لم يكن ليقبل مطلقا انتقاص سلطانه بأي صورة من الصّور، ولعل هذا يفسّر لنا أنّه لم يُقدم على الاضطهاد إلاّ في السنة التّاسعة عشر من حكمه،لأنّه لم يتصوّر مطلقا أن تخرج الكنيسة عن دائرة نفوذه،وأن تغدو بذلك دولة داخل دولة »[2].

وواصل الإمبراطور" قسطنطين الأوّل"[3] " ConstantineI"(305م-337م) الإصلاحات خاصة في المجال التّشريعي والقانوني والعسكري والإداري، وكان من نتائج إنجازاته

---

[1]- حاكم روماني،ولد عام 245م بالقرب من مدينة"سالونا""Salona"،في إقليم "دالماشيا"،وقد أطلق اسمه على مدينة صغيرة تقع في هذا الإقليم،حيث كان مسقط رأس أمّه ،كان والديه عبدين في بيت " أنولينوس"(Anulinus) أحد أعضاء مجلس السناتو،حصل دقلديانوس على وظيفة كاتب،وبفضل جهوده ونبوغه وصل إلى مرتبة القنصل،ثمّ تولى قيادة حرس القصر الإمبراطوري ،وكثير من الوظائف الخطيرة،وتجلت كفاءته في حرب فارس.راجع(مفيد الزيدي،موسوعة تاريخ أوربا الحديث والمعاصر،ط2،دار أسامة للنّشر والتّوزيع،عمان الأردن،2009م،ج1، ص15).

[2]- رأفت عبد المجيد،الدولة والكنيسة،دط،دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع،القاهرة،مصر،2000م،ص 56.

[3]- إمبراطور روماني،يُعتبر من أعظم الأباطرة الرّومان المتأخرين،تنصّر عام 313م،فكان أوّل إمبراطور روماني مسيحي،أعاد بناء مدينة "بيزنطة" عام 330م ودعاها على اسمه"القسنطينية"، ومن ثمّ نقل عاصمة الإمبراطورية الرّومانية من روما إليها .راجع(منير البعلبكي،معجم أعلام المورد،ط1،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،1992م، ص 348).

بناء القسطنطينية، هذه المدينة التي اتّخذها عاصمة للإمبراطورية وتمكّن من القضاء على الحروب الأهلية، وخالف " دقلديانوس "في معاملته للمسيحية، حيث اعترف بها وذلك بإصدار مرسوم"ميلان "[1] "Edict of Milan" (313م)، هذه الإنجازات اعتبرها جلّ المؤرخين بداية للعصور الوسطى في أوربا، حيث نظر الدّارسون إلى مسيحية قسطنطين معلّلين عونه للمسيحية تعليلا سياسيا متكئين على ما واكب عطفه على المسيحيين من سلوك.كانت وحدة الإمبراطورية هدفه ومنتهاه [2].

وفي إطار الإصلاحات السّياسية والتي برزت بشكل ملفت في هذه الفترة، أدّت ببعض المؤرخين إلى التّأكيد على أنّ عهد"جستيان"[3] " Justinian" (527م- 565م)، شهد إصلاحات ضخمة ميّزت نهاية التّاريخ القديم وبداية العصر الوسيط، فهم يعلّلون وجهة نظرهم بالأعمال الكبيرة التي قام بها هذا الإمبراطور، والمتمثلة في الإصلاح الإداري؛بحيث عمل " جوستيان " على إصدار أوامر صارمة لتطهير النّظام الإداري، وصار لزاما على الولاّة أن يكونوا ذوي – أيدي طاهرة –، وتحتّم عليهم توفير العدالة المتكافئة للنّاس جميعا، وحماية رعاياهم من عنف العسكريين أو ممّا يبتزه صغار الموظفين من الأموال، وحفظ التّوازن بين الغنيّ والفقير، والتزام العدالة في احترام حقوق الكنيسة والدّولة بدرجة متساوية...، وكانت هذه الأوامر تُعزّز بيمين رهيبة،كان على كل حاكم جديد أن يقسمها، فإن أخفق في أداء واجبه تعرّض لأشد العقوبات.

---

[1] – مرسوم ميلان:أصدره الإمبراطور قسطنطين والإمبراطور ليسينيوس سنة 313م،يقضي بإعطاء النّصارى الحرية في الدّيانة وإرجاع أملاكهم المغتصبة ،وإقرار حرية الأديان عموما.راجع(سعد بن عبد العزيز الخلف،دراسات في الأديان اليهودية والنّصرانية، ط4،مكتبة أضواء السّلف،الرّياض،المملكة العربية السّعودية،2004م،ص 250).

[2] – محمود سعيد عمران،معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى،دط،دار المعرفة الجامعية،بيروت،لبنان،دت، ص 14.

[3] – إمبراطور بيزنطة (الإمبراطورية الرومانية الشرقية) منذ عام 527م حتى وفاته. جمع القوانين الرومانية في قانون أطلق عليه "كوربس جوريس سيفيلز" (مجموعة القوانين المدنية). كذلك أطلق عليه "قانون جستنيان"، أو" مدونة جستنيان"، وهو أساس للأنظمة القضائية لدى كثير من الأمم في عالم اليوم،أطلق على جستنيان لقب "الأعظم"، وقد استولى على معظم ما كان يُعرف بالإمبراطورية الرومانية الغربية من البربر، وبنى القلاع والمرافئ والأديرة وكنيسة "أياصوفيا "الشهيرة الموجودة بإسطنبول بتركيا.(الموسوعة العربية العالمية،مرجع سابق،ج 10 ،ص 356).

بالإضافة إلى تطهير النّظام الإداري، أدخلت تبسيطات هامة في الجهاز الإداري ببعض أجزاء الإمبراطورية. وضمّت الأقاليم حتى جعلت وحدات أكبر واختفت الأقسام الإدارية،وكانت السّلطات العسكرية والمدنية توحّد في بعض الأحيان.[1]

وعليه، لقد اعتبر بعض المؤرخين أنّ نهاية العصور القديمة،وبداية العصور الوسطى، مرتبط ببعض الشّخصيات التّاريخية مثل "دقلديانوس" و "قستنطين الأول" و"جستيان"؛ وذلك من خلال الإصلاحات السّياسية التي قاموا بها أثناء حكمهم، والتي لم يعهدها الحكام الذين كانوا من قبلهم، فهم بذلك أتوا بشيء جديد غير معهود.

ثانيا: العوامل الدّينية.

يرى بعض المؤرخين أنّ عهد الإمبراطور"جوليان المرتد"[2] " Julian The Apostate" (361م- 363م)، يمثل بداية العصور الوسطى،وذلك بسبب ارتداده إلى الوثنية وجعلها دينا رسميا للدّولة، ومحاولة القضاء على المسيحية، فقد وقع تحت تأثير العالم الوثني، وتعلّق بفنونه وحضارته وعلومه،ونجح في إخفاء ذلك قبل تولّيه العرش، وما كاد يلي السّلطة حتى شرع في تحقيق أمله بإعادة الوثنية، ومن بين الإجراءات التي قام بها تنظيم المعابد الوثنية على نسق الكنائس المسيحية، فصار يُتلى بها أسرار الحكمة اليونانية، وأدخل جوليان التّرانيم في الشّعائر الوثنية.

وعلى الرّغم من أنّ الوثنيين كانوا لا يزالون من النّاحية العددية قوّة لها حسابها لاسيما في الشّطر الغربي من الإمبراطورية، وعلى الأخص في روما،فإنّ "جوليان" لم ينجح في مقاومة

[1] – ه.سانت ل.ب.موس،ميلاد العصور الوسطى،ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد،دط،عالم الكتب،القاهرة،مصر،1967م، ص189.

[2] – إمبراطور روماني،أعلن أنّه يدين بالوثنية عام 361م،واضطهد النّصارى ومنعهم من التّعليم في المدارس؛بدعوى أنّ الوثنيين وحدهم قادرون على تأويل الأدب الكلاسيكي تأويلا صحيحا،صُرع وهو يُقاتل الفرس عند نهر دجلى.راجع(منير البعلبكي،معجم أعلام المورد،مرجع سابق، ص 162- 163).

المسيحيين وتحطمت في النّهاية جهوده خاصة وقد بدأ يلتفت للخطر الفارسيّ الذي يهدد كيانه. وعادت المسيحية دينا رسميا في الدّولة، وهي الدّيانة التي ميّزت أوربا في العصور الوسطى[1].

ويرى بعض المؤرخين أنّ بداية التّاريخ الوسيط كانت عام "376م"، ويُعللون وجهة نظرهم بأنّه في هذه السنة تحوّل "القوط الغربيون" من الوثنية إلى المسيحية على يد المبشر الأريوسي " أولفيلاس" "Alfilas " (310م-383م)، وهذا ما جعل الشرقيين يسمحون لهم بعبور نهر الدّانوب[2] والاستقرار في جوف الإمبراطورية.

ويعتبر بعض المؤرخين أنّ حكم الإمبراطور" ثيودوسيوس الأوّل" [3] "TheodosiusI" (379م-395م) نقطة عبور من التّاريخ القديم إلى التّاريخ الوسيط، وبالتّحديد سنة" 379م " حيث قرّر " ثيودوسيوس" القضاء على كافة العناصر الوثنية والمذهب الأريوسي، وفرض أشدّ العقوبات على أتباع هذا المذهب[4].

إذن هذه جملة من العوامل الدّينية، التي يعتقد المؤرخون أنّها تمثل بداية العصور الوسطى ونهاية العصور القديمة، ومع ذلك لا يمكن الجزم بأنّ هذه العوامل وحدها كانت سببا في نهاية العصور القديمة وبداية العصور الوسطى، بل هناك عوامل أخرى مساعدة منها الإقتصادية و الفكرية والاجتماعية والسّياسية...، وهذه العوامل مجتمعة تعطينا تصورا عاما عن أسباب انتهاء العصور القديمة وبداية العصور الوسطى.

---

[1]- محمّد محمّد مرسي الشّيخ،تاريخ أوربا في العصور الوسطى،دط،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية،مصر،1995م،ص139-140.

[2]- ثاني أطول أنهار أوروبا بعد نهر الفولجا، ويجري على طول 2,860كم من منبعه بألمانيا إلى مصبه في البحر الأسود في أوروبا الشرقية، وتبلغ مساحة حوضه نحو 815,800كم^2.(الموسوعة العالمية العربية،مرجع سابق،ج 10،ص 241).

[3]- إمبراطور روماني،منح القوط حق الإقامة في أراضي الإمبراطورية وأسند إلى زعمائهم بعض المناصب العليا،ألغى مهرجان الألعاب الأولمبية عام 393م،قسّم الإمبراطورية قبيل وفاته إلى جزءين،غربي وشرقي.(معجم أعلام المورد،مرجع سابق ص154).

[4]- جوزيف نسيم،تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها،ط2،دار النّهضة العربية،بيروت،لبنان،1987م،ص 28.

ثالثا: عوامل أخرى

بين الكثير من المؤرخين أنّ سقوط عاصمة الإمبراطورية الرّومانية القديمة "روما"، هو إعلان عن نهاية عصر وبداية عصر آخر، حيث أنّه في سنة "410م" تمكّن قوط الغرب من دخول إيطاليا بقيادة "ألارِك"[1] "Alaric" وتمكّنوا في هذا العام من غزو إيطاليا والزحف على روما واقتحامها.كما يرى البعض أنّ سنة"486م" تمثل نهاية تاريخ الإمبراطورية الرّومانية وبداية العصور الوسطى، لأنّها السنة التي تمكّن فيها "أودواسر"[2] "Adoaccer" من دخول مدينة "رافينا"[3]، وعزل الإمبراطور "رومولس"[4] (475م-486م)[5].

كما ترى مجموعة من المؤرخين أنّ موقعة " أدرنة "[6] "Adrianople" سنة "378م" تصلح لتكون نهاية للتّاريخ القديم وبداية للتّاريخ الوسيط،حيث توسّع" القوط"[7] نحو الدّانوب

---

[1]- ملك القوط الغربيين، غزا الإمبراطورية البيزنطية (395م – 399م)، ثمّ اتّجه شطر الإمبراطورية الرّومانية الغربية فغزاها (401م –410م)، واحتل روما نفسها وأعمل فيها السّلب والنّهب عام 410م.(معجم أعلام المورد ،مرجع سابق ، ص61).

[2]- قائد جرماني،ولد بالقرب من نهر الدانوب فيما يُعرف الآن بألمانيا. انضم إلى الجيش الروماني الغربي وأصبح قائدًا للقوات البربرية التي تخدم الرومان. عندما رفضت الحكومة الرومانية عام 476م منح قواته أرضًا للاستقرار فيها، قام بقيادتهم في ثورة وأقصى الإمبراطور الروماني الغربي" رومولوس أغسطولوس"، وأصبح أول ملك بربري على إيطاليا.(الموسوعة العالمية العربية،مرجع سابق،ج 3،ص 323).

[3]- مدينة في شمالي إيطاليا مشهورة بكنوزها الفنية المعمارية، إضافة إلى كونها مركزاً زراعيا وصناعيا. تربطها بالبحر الأدرياتيكي قناة طولها عشرة كيلومترات.،عدد السكان 135,844 نسمة. ظلت رافينا عاصمة الإمبراطورية الرومانية الغربية منذ عام 402م إلى أن استولى عليها القائد البربريّ أودواسر" عام476م.(الموسوعة العالمية العربية،ج 11،ص 78).

[4]- أحد ملوك الرّوم،بنى هو وأخوه "روماناوس"مدينة رومية واستقا اسمها من اسميهما،ثمّ وثب رومولس على أخيه فقتله،وملك بعده ثمانيا وثلاثين سنة وحده،وبعد ذلك اختفى بطريقة غامضة أثناء عاصفة.(الموسوعة العالمية العربية،مرجع نفسه،ج 11،ص422).

[5]- محمّود سعيد عمران،معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى،المرجع السّابق، ص 18.

[6]- هي المدينة الثّالثة من مدن تركيا،جدّدها وكبرها الإمبراطور الرّوماني " أدريان"في القرن الأوّل ميلادي،حدثت في ضواحيها معركتان هائلتان،أولهما بين " ليسينيوس " و" كونستنيان "إمبراطو الرّومان،فهزم الأوّل شر هزيمة سنة" 373م "،أمّا المعركة الثّانية فكانت سنة " 378م "حيث هزم الإمبراطور " فالان " الرّوماني في حربه مع الغوط ولقي حتفه.راجع:(محمّد فريد وجدي،دائرة معارف القرن العشرين،مرجع سابق،مج 1،ص 118- 119).

[7]- قبائل جرمانية،هاجروا إلى منطقة شمال البحر الأسود في القرن الثاني الميلادي، وفي القرن الثالث الميلادي أغاروا على حدود حدود الإمبراطورية الرومانية الشمالية الشرقية. استوطن بعض القوط في داسيا (جزء من رومانيا والمجر الآن) عام 272م. وفي

في"موشيا" "Moesia "و"تراقيا" "Thrace"،لكنهم سرعان ما انقلبوا على الإمبراطورية، وعمدوا إلى محاربة الإمبراطور "فالنس"[1] "Valens"(364م- 378م) ممّا أدى إلى هزيمة الإمبراطورية هزيمة ساحقة ومقتل ثلثي الجيش الإمبراطوري،وكذلك مقتل الإمبراطور نفسه،وهذا كله أثّر سلبا على مصير الإمبراطورية لفترة طويلة[2].

وعليه فهذه بعض العوامل التي تطرقنا إليها،والتي تُعبّر عن آراء بعض المؤرخين حول بداية العصور الوسطى،وبالرّغم من هذا الاختلاف والتّضارب في الآراء، إلاّ أنّنا نخلص إلى أنّ هناك عوامل كثير ة هيّأت المناخ الملائم لقيام العصور الوسطى ونهاية العصور القديمة.

المطلب الثّالث: نهاية العصور الوسطى

من خلال ما تقدم تناولنا عوامل بداية العصور الوسطى، والتي توزّعت بين العوامل السّياسية والدّينية وغيرها،وهذا ما سنقوم به في هذا المطلب، بحيث سنبيّن أهم العوامل التي تمثل نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة ومن بين هذه العوامل ما يأتي:

أولا: العوامل السياسية

يرى بعض المؤرخين إنهاء العصور الوسطى بعام (1453م)، ويعللون وجهة نظرهم بحادثتين وقعتا في تلك السنة،كان لهما الأثر البالغ الأهمية في الشّرق والغرب الأوربي، ففي الشّرق سقطت "القستنطينية" في أيدي الأتراك العثمانيين بعدما ضيّقوا الحصار عليها بعد بناء قلعة "أنضولي" عام (1397م) على الشّاطئ الأسيوي على مسافة ستّة أميال شمالي العاصمة، ثمّ قلعة "رملي" لتقابلها على الشّاطئ الأوربي عام(1452م). وبسقوط هذه المدينة يأفل نجم مجتمع "الإمبراطورية البيزنطية"، أي نصف مجتمع أوربا العصور الوسطى. وينفذ الأتراك إلى أوربا

القرن الرابع الميلادي انقسموا إلى قبيلتين. وصار القوط الذين استقروا في داسيا يعرفون بالقوط الغربيين، بينما عُرف الذين استقروا في شمال البحر الأسود بالقوط الشرقيين.(الموسوعة العالمية العربية،ج 18،ص 421).

[1]- إمبراطور رومانيّ، وُلد في "سيبالي" القريبة فيما يعرف الآن ببلجراد، بجمهورية صربيا،عيّنه أخوه الإمبراطور "فالنتينيان " الأول كإمبراطور شريك، ليقوم بإدارة الولايات الشرقية .واعتنق فالنس المذهب الهوميوني.(الموسوعة العالمية العربية،ج 17،ص204).

[2]- محمّود سعيد عمران، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى،المرجع السابق، ص18.

حاملين معهم أفكارا جديدة قضت على أنظمة "الإمبراطورية البيزنطية "، ومهدت في قيام أنظمة أخرى ساهمت في قيام العصر الحديث.

أمّا فيما يتعلق بالأحداث التي وقعت عام (1453م) في الجانب الغربي من أوربا ، ففي هذا العام تنتهي حرب "المائة عام" التي دارت رحاها بين "إنجلترا " و "فرنسا"، وانتصار الأخيرة بعد سقوط مدينة "بايو" "Bayonne" ومدينة "بوردو" "Boreaux" على التّوالي. ولعل اتّخاذ بعض المؤرخين لهذه الأحداث علامة على نهاية العصور الوسطى؛ مرجعه إلى ما ترتب عليها من نتائج شملت الجوانب القومية والفكرية والاقتصادية والمعمارية في إنجلترا وفرنسا، ثمّ انسحبت على بقية الغرب الأوربي [1].

وعليه يعتبر سقوط القسنطينية على يد الأتراك العثمانيين، وانتهاء حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا من العوامل السّياسية الهامة، التي كان لها بالغ الأثر في انتهاء العصور الوسطى، وبداية العصور الحديثة.

ثانيا: العوامل الفكرية

❖ **التّحرر من قيود العصور الوسطى:**

في المرحلتين الأولى والثّانية من العصور الوسطى (300 م– 1000 م– 1350م) احتكرت الكنيسة المسيحية الثّقافة الأوروبية؛ فحاربت المفاهيم العلمية والأفكار الحرّة التّقدميّة، التي تتعارض مع مصالح الطبقة الإقطاعية.أمّا في القرنين الرّابع عشر والخامس عشر الميلادي فقد دُحرت الكنيسة المسيحية أمام الأفكار العلمية في المجالات السّياسية والفكرية والفنية والإقتصادية ...، وقد قامت "الحركة الإنسانية" ببعث الثّقافة الكلاسيكية (اليونانية والرّومانية)، كما شرع الأدباء والفلاسفة والعلماء يُهاجمون الأفكار الدّينية الرّجعية وليدة العلاقات الإقطاعية [2] ومن أمثلة هؤلاء الفنانين الذين ابتعدون عن قيود الكنيسة ورجال الدّين، وأخذوا يستمدون إلهامهم من

[1] – محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ،مرجع سابق،ص 21 .

[2] – نعيم فرح،الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى،ط2، الجمعية التّعاونية للطّباعة،سوريا،دمشق،2000م،ص10.

الحياة الواقعية التي كانوا يعيشونها وقتذاك ومن روح الدّيانة المسيحية، نجد "دانتي الـيجيري"[1] " Dant Alighieri" (1260م-1321م)، الذي احتل مكانة بارزة عند مـدخل النّهضـة الإيطالية، وكان أوّل رجل عظيم في العصور الوسطى اعتمد على نفسه وعلى مواهبه في الوصول إلى قمة الشهرة دون أن يرتبط بهيئة دينية أو علمانية، أو يعتمد على شرف المولد، وقد تركـت "الكوميديا الإلهية " التي وضعها أثرا عميقا في نفوس الإيطاليين وعقولهم .

أمّا "بترارك "[2] " Petrach " (1304م-1374م)، فقد أثّرت قصائده الغزلية في أدب جميع البلدان الأوروبية، بحيث يُعدّ أول الإنسانيين الإيطاليين؛ نظرا لحبه لأدب القدامى وشـغفه بحريتهم، ومن ثمّ أخذ يواصل البحث عن تراث القدامى، حتى جمع ما يقرب من مائتي مخطوطة.

أمّا بالنّسبة لـ "بوكاشيو"[3] "Boccaccio "(1313م-1375م) فقد كان هو الآخـر مولعا بدراسة آداب القدامى، وأحرز شهرته العظيمة من مائة قصة وضعها، والتي تُعرف باسـم "الأيام العشرة" "Decameron" على أساس أنّ سردها يستغرق عشرة أيام .ومـن هـذه المجموعة القصصية يُظهر "بوكاشيو" احتقاره لخرافات العصور الوسطى، وتقاليدها البالية، كمـا ينظر إلى الحياة نظرة مرحة باسمة، وهذه كلها اتجاهات غريبة عن العصـور الوسـطى جديـدة عليها، وفيما بعد استعـار الكاتب الإنجليزي "شوسر" في مؤلفه "قصص كانتربوزي " كثيرا من الفصـول والمواقف، الـتي زخرت بها قصص بوكاشيو. وعن طريق شوسـر تـأثر الكتّـاب الإنجليز في الـقـرون التّالية بأسلوب بوكاشيو .

---

[1]- كبير شعراء إيطاليا،قضى شطرا من حياته في المنفى،من أهم آثاره "الكوميديا الإلهية" (1310م- 1314م)،وهي ملحمـة يدور موضوعها حول رحلة خيالية قام بها دانتي إلى الجحيم والجنّة،وفيها يتجلى إيمان الشاعر وحبه وثقافته الواسـعة .(معجـم أعلام المورد،ص 185).

[2]- عالم وشاعر إيطالي،يعتبر أب الحركة الإنسانية "Humanism"،جمع عـددا مـن المخطوطـات الكلاسـيكية؛وترجم بعضها،اشتهر بقصائده الغزلية في محبوبته"لوراه" "Laura"وقد كان لهذه القصائد أبعد الأثر في ازدهار الشعر الغنائي في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وإنجلترا.(معجم أعلام المورد، ص 95).

[3]- شاعر وكاتب إيطالي،أسهم مع بترارك في إرساء أسس الحركة الإنسانية في عصر النّهضة،ا شـتهر بمجموعتـه القصصـية "ديكاميرون " "Decameron" (حوالي عام 1348م)، التي كانت مصدرا استمد منه "تشوسر" " Chaucer"وشكسبير وغيرهما استمدادا كثيرا،يعرف بـ "أبي النّر الإيطالي الكلاسيكي" .(معجم أعلام المورد،ص119).

إنّ هؤلاء الأدباء الثّلاثة – دانتي، بترارك، وبوكاشيو – هم الذين فتحوا باب الحركة الفكرية في إيطاليا، كما بشّر ظهورهم بالنّهضة وجعل قدومها أمرا متوقعا في السنوات التّالية[1].

وعليه فقد كانت جهود هؤلاء وأمثالهم من الأدباء والشّعراء،كفيلة بخلق عصر جديد له حضارة جديدة تختلف عن حضارة العصور الوسطى.

❖ الإصلاح الدّيني:

لقد بالغت الكنيسة في فرض تعاليمها على الشّعب وعلى العلماء، فلم تسلك لذلك طريق الوعظ والإرشاد، بل سلكت سبل القهر والعنف والتّسلّط؛ فحرّمت كل رأي يخالف رأيها، واستتبع ذلك تحريم الأبحاث الطّبيعيّة العلميّة، وأصدرت فتاوى التّكفير لكل عالم يبحث في مسائل الطّبيعة والمعرفة، بل تجاوزت ذلك إلى الحكم بإحراق من يأتي فعلا من الأفعال التي حرّمتها .

فالمجمع الثّاني عشر المسمّى بـ "المجمع اللاّتيراني الرّابع" المنعقد عام (1215م)، يقرر: استئصال كل من يرى رأيا يخالف رأي الكنيسة ولو كان في العلوم الطّبيعية، بل إنّ الكنيسة راحت تفتش عن العلماء الذين يبحثون في هذه المسائل، وتتجسس عليهم، وشكّلت لذلك نظام محاكمة عُرف في التّاريخ بـ "محاكم التّفتيش"، وما ارتكبته من آثام، وما أزهقت من أرواح، وما سفكت من دماء ...، وإلى ذلك يشير "المسيو إيتين دينييه" فيقول: (بل إنّ منهم من حاربتهم المسيحية واضطهدتهم، خذ مثلا: (جاليليو) الفلكي الإيطالي و (إيتين دوليه) الكاتب النّاشر الفرنسي، وغيرهما ممّن ذهبوا ضحية التّعصب الذّميم)[2].

كذلك احتجزت الكنيسة لنفسها الحق في فهم الكتب المقدّسة، واستبدّت بتفسيرها دون سائر النّاس، ولا معقّب لما تقول في هذا التّفسير، أو في رأي تبديه، أو أمر تعلنه، وعلى النّاس أن يتلقوا قولها بالقبول وافق العقل أم خالفه، وعلى المسيحي إذا لم يستسغ عقله قولا قالته، أو

[1] – نعيم فرح،الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص 366 – 369 .

[2] – رؤوف شلبي، أضواء على المسيحية،دط،منشورات المكتبة العصرية،بيروت،لبنان، 1968م،ص128 .

مبدأ دينيا أعلنته أن يُروض عقله على قبوله، فإن لم يستطع؛ فعليه أن يشك في العقل ولا يشك في قول البابا[1].

ووسط هذه الأجواء السّلبية السّائدة؛ تعالت الأصوات داعية للإصلاح، وتؤكد أنّ الكنيسة قد استغرقتها النّوازع والاهتمامات الدّنيوية، وأنّ البابوية قد تخلّت عن هموم الجماهير واستولت الأطماع على رجال الدّين، وتدهورت عقائد الجماهير حتى غدت تمثل ديانة شعبية وبدائية مقطوعة الصّلة بجوهر المسيحية.

ومن هنا بدأ صراع عنيف بين الكنيسة وبين المصلحين (القرن الخامس عشر الميلادي)، ومن أشهر من قادوا الإصلاح في هذا القرن "جيروم" و "هوس"، ولكن سلطان الكنيسة كان أقوى منهما؛ فأعدما حرقا بالنّار، بيد أنّ مصلحي هذا القرن على كل حال مهدوا الطّريق لمن جاء بعدهم، وحفل القرن السّادس عشر الميلادي بمجموعة من المصلحين المشاهير، وبخاصة في إنجلترا التي كانت ترى سلطان الكنيسة تدخلا في شؤونها، وفي ألمانيا التي عانى بعض ملوكها قسوة الباباوات حينما أصدروا ضدهم قرارات حرمان، ومن هنا يُسرّ هؤلاء الملوك لرعاياهم القيام بحركات مناوئة للكنيسة، وظهر في إنجلترا "توماس مور" (1478م –1535م) ودعا إلى إصلاح الكنيسة بطريق سلميّ، ثمّ ظهر بعد ذلك (في نفس القرن) أشهر المصلحين وهو "مارتن لوثر" وكان ظهوره في ألمانيا موطن العقل الكبير والتّفكير الحرّ؛ حيث كان عالما باللاّهوت، ولذلك نجد أنّه تجمّع له ما لم يتجمّع لسواه، فحركته نابعة من قلبه وليس بتوجيه ملك أو إيعاز أمير، وهو رجل ألماني مستقل العقل حرّ التّفكير، ثمّ هو رجل من رجال اللاّهوت، فهو عالم بخبايا الكنيسة دارس لعلومها[2].

وعليه فقد تميّزت العصور الوسطى ببداية حركات الإصلاح الدّيني في القرن الرّابع عشر والخامس عشر والسّادس عشر الميلادي، والتي أخذت تنادي بإصلاح الجهاز الكنسي البابوي، بعدما تدهورت البابوية وبُعد الباباوات أنفسهم عن تعاليم المسيحية الأولى، ونتج عن ذلك زوال هيبة الكنيسة اللاّتينية، وظهور عصر جديد وهو عصر النّهضة.

---

[1]- محمّد أبو زهرة،محاضرات في النّصرانية، ط2، دار الفكر العربي،القاهرة،مصر، 1949م،ص 155 – 156 .

[2]- أحمد شلبي،المسيحية،ط 10،مكتبة النّهضة المصرية، القاهرة،مصر، 1998م،ص 258 – 259 .

❖ **التّقدم في ميدان العلم والاختراع:**

تعتبر الطّباعة أهم اختراع ظهر في عصر النّهضة، بل هي من أعظم الاختراعات التي شهدتها الإنسانية، وقد أسهمت في إثراء الحياة الثّقافية على مرّ العصور والأحقاب، ويرجع الفضل في تطوير الطّباعة إلى الألماني "جوتنبرج" الذي أدخل على الطّباعة تحسينات عدّة، وأصبحت تستخدم الحروف في الجمع، وبذا قفزت الطّباعة قفزات واسعة، وبفضلها أصبحت الدّراسات الإنسانية وغيرها من العلوم في متناول الكثيرين .ثمّ جاء اختراع الورق واستخدامه في الطّباعة بعد أن كان يُستخدم ورق البردي في العصور القديمة، ورقائق جلود الأغنام في العصور الوسطى، فقد مكّن كشف الورق – والنّجاح في صنعه – الطّباعة من أداء رسالتها على أكمل وجه[1].

وعليه فالطّباعة أهم مخترعات عصر النّهضة، وأهم وسائل نشر الثّقافة التي ظهرت في العصر الحديث. ومع الطّباعة تطوّرت الصّناعات المصاحبة (الورق والحبر والتّجليد) . وهكذا أصبح الكتاب في متناول الكثيرين.

❖ **الكشوفات الجغرافية:**

كانت حركة الكشوف الجغرافية التي تم جزء كبير منها في القرن الخامس عشر الميلادي ؛ هي أهم نتيجة عملية للنّهضة الأوروبية. فلقد تمكن الملاّحون الأوروبيين من التّوصل إلى نتائج هامة في مجال الكشف الجغرافي وفي تاريخ العالم، مثل اكتشاف الأمريكتين ابتداء من عام (1492م)، واكتشاف طريق رأس الرّجاء الصّالح في عام (1498م).

ولقد كانت معلومات أهل أوربا عن العالم ضئيلة، ومعظمها من نسج الخيال وخاطئة في مجموعها، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى عدة عوامل من أهمها:

1. قصور وسائل المواصلات عن التّغلغل في أنحاء العالم.
2. ضعف مقدرة الإنسان على الملاحة في أعالي البحار.
3. سطحية معلومات أهل أوربا في علم الفلك.

[1] – شوقي عطاء اللّه الجمل و عبد اللّه عبد الرّزاق إبراهيم،تاريخ أوربا من النّهضة حتى الحرب الباردة،دط،المكتب المصري لتوزيع المطبوعات،القاهرة،مصر، 2000م ،ص 16 .

4. الحياة في مجتمع مغلق ، والانفصال بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي [1].

وعليه ظهرت العديد من الكشوفات الجغرافية الواسعة،والتي انطلقت من البرتغال وإسبانيا واكتشفت عوالم جديدة بأوربا بغية معرفتها واستغلالها،كإشارة "كريستوفر كولومبس"[2] "Christopher Columbus"(1451م-1506م) على وجود عالم جديد ما وراء المحيط،كذلك اكتشف الملاّح البرتغالي"بارثليموديـاز"[3] "Bar Tholome Diaz" (1450م-1500م) طريق رأس الرّجاء الصالح (1487م) وغيرها من الاكتشافات[4].

ومن هنا يُعلل الكثير من الباحثين أنّ هذه الكشوف الجغرافية، هي حد فاصل بين التّاريخ الوسيط والحديث في أوربا.

وعليه فهذه جملة من العوامل التي كانت سببا في نهاية العصور الوسطى،وبداية عصر جديد وهو عصر النّهضة.

وخلاصة ما يمكن قوله حول بداية ونهاية العصور الوسطى هو: أنّ جميع الأحداث التي ميّزت القديم بالوسيط والوسيط بالحديث في أوربا ،تقريبا دارت رحاها بين القرنين الخامس الميلادي وأواخر القرن الخامس عشر الميلادي،ومع ذلك لا يمكن الجزم أنّ مهما كان الاختلاف بين الباحثين والمؤرخين في تحديد فترة العصور الوسطى في أوربا وربطها بأحداث هامة، إلاّ أنّ الهدف يبقى واحد وهو تسهيل الدّراسة على القارئ،لأنّه مهما يكن فإنّ الفترات التّاريخية والعصور المترابطة،متداخلة بعضها ببعض ومتتالية لا يمكن تجزئتها أو فصلها عن بعضها البعض.

---

[1]- عمر عبد العزيز عمر،دراسات في التّاريخ الأوربي والأمريكي الحديث،دط،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية،مصر، 1992م ، ص 80 .

[2]- كولمبوس كريستوفر(1506-1451) م). واحد من أشهر البحارة والملاحين في التاريخ. ويطلق عليه لقب مكتشف أمريكا؛ حيث فتحت رحلته الطريق إلى العالم الجديد الواسع وراء الأطلسي، كما أدى نزوله في جزر الهند الغربية إلى اتصال دائم بين أوروبا ونصف الكرة الأرضية الغربي،مهدت رحلاته الأربع إلى العالم الجديد وغيّرت مجرى التّاريخ، راجع : (الموسوعة العربية العالمية،ج 20، ص 254 - 255).

[3]- قبطان ومكتشف برتغالي. ساعد اكتشافه لطريق الإبحار حول إفريقيا في تيسير السفر بين أوروبا الغربية وآسيا. لم يعرف عن بداية حياته إلا القليل. توفى أثناء رحلة العودة من البرازيل عندما أغرقت عاصفة سفينته.(الموسوعة العالمية العربية،ج10،ص550).

[4]- محمود سعيد عمران،معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى،المرجع السّابق،ص 23.

المبحث الثّالث: العلم التجريبي في الحضارات القديمة

منذ أقدم الأزمان،كان الفضول ينتاب البشر بشأن العالم الذي كان يحيط بهم، وقبل بزوغ الحضارة بآلاف السنين تعلّم النّاس الإحصاء وحاولوا تفسير ظواهر شروق الشّمس وغروبها وحالات القمر، ودرسوا كذلك الحيوانات التي كانوا يصطادونها، وعرفوا أنّ بعض النّباتات يمكن أن تستعمل أدوية، واكتسبوا بعض المعارف الأساسية الأخرى من الطبيعة.

هذه الإنجازات كانت مؤشر بداية العلم، وكانت من بين المحاولات الأولى لفهم الطّبيعة والسّيطرة عليها، وبشكل عام، كانت الرّياضيات والطّب من أوائل العلوم التي تطورت وتبعتها العلوم الطّبيعية وعلوم الحياة والعلوم الاجتماعية...، وعليه سنحاول تناول موقف بعض الحضارات القديمة من العلم التّجريبي؟ وكيف تعاملت مع هذا الأخير؟.

المطلب الأول: الحضارة البابلية القديمة

كان البابليون تجاراً، ومن أجل هذا كان نجاحهم في العلم أيسر من نجاحهم في الفن. لقد أوجدت التّجارة علوم الرّياضة، وتعاونت مع الدّين على إيجاد الفلك. وكانت الأعمال المتعددة التي يقوم بها كهنة أرض الجزيرة، من قضاء بين الناس، وهيمنة على المصالح الحكومية، وزراعة وصناعة، وعرافة وخبرة بالنّظر في النّجوم وفي أحشاء الحيوانات-كانت الأعمال التي يقوم بها هؤلاء الكهنة حافزاً لهم على أن يضعوا على غير علم منهم أسس العلوم التي كانت في أيدي اليونان الملحدين- سبباً في إنزال الدّين من مركز الزعامة والسّيطرة على العالم[1].ومن خلال هذا المطلب سنحاول الكشف عن العلوم التّجريبية التي اشتهر بها البابليون آنذك.

1- الفلك:

لقد كانت الأفكار الفلكية لدى كهنة بابل مشتقة من علم الفلك البدائي؛حيث كانت الأرض، السّماء والمحيط في نظرهم، هي عناصر العالم الأساسية. الأرض نوع من الجبل

[1]- ول ديورانت،قصة الحضارة،تقديم:محي الدّين صابر،دط،دار الجيل،بيروت،لبنان،1988م،ج 2،ص 249.

الدائري،منتصب في وسط المحيط الأولي، وفوق الأرض يقوم، ككوب مقلوب ، الفضاء السّماوي أو الهوائي، الذي يهيمن عليه سدّ سماويّ تسكنه الآلهة، محاط بمحيط سماويّ تصل أطرافه السّفلى المحيط الأرضي، بداية شبّهت النّجوم بخراف ترعى في السّد السّماوي، والشّمس والقمر فلكان خلقهما الآلهة، وتحدث الكسوفات لأنّ أرواحا شريرة خبّأت القمر والشّمس.

وفي بداية الألف الثّاني،ميّز علماء الفلك من النّجوم الثّابتة خمسة كواكب معروفة اليوم بأسمائها اللاّتينية:" فينوس، مارس، جوبيتير، مركوري وساتورن "، في نفس الحقبة تكوّنت مجموعات نجومية، تمّ ميّز العلماء اثنا عشر مجموعة نجومية على "درب الشّمس" (الكسوفي)، المسمّاة "زودياك" وأقرّ أنّه قرب "دب الشّمس"، هذا تقع الكواكب المسمّاة أعلاه ، ولا يعرف الكهنة تفسير الكسوف أو الخسوف يومئذ، ويخلطون الظاهرات الفلكية والتّغيّرات المناخية، وعلى قاعدة الملاحظات الفلكية البدائية،أعد تقويم يشبه الذي وضعه الصّينيون، وقد لعب التّقويم البابلي دورا فريدا في تاريخ الحضارة، وخدم جزئيّا نموذجا متطوّرا لدى الشّعوب الأوروبية[1].

وكانت العرافة من أهم وظائف الكهنة، وقد تخصص فريق منهم في تأويل الأحلام والحوادث الطّبيعية، على أنّ أبرز أساليبهم في العرافة كان التّنجيم، وفي سبيل إحكام ما يسمّى بالأسلوب العلمي في قراءة إرادات الآلهة في أوضاع الأجرام السّماوية، احتفظ العرّافون بسجلات دقيقة مفصّلة عن حركات الأجرام السّماوية،فمهدوا بذلك الطريق لعلم الفلك الحديث،وابتكروا آلات فلكية لقياس أبعاد الفضاء وأزمنة الكواكب في منتهى الدّقة والضبط[2].

وقد استطاع البابليون منذ عام 2000 ق.م أن يسجّلوا بدقة شروق الزّهرة بالنّسبة إلى الشّمس وحددوا كذلك مواضع عدة نجوم، وأخذوا يصوّرون السّماء على مهل،لكن هذا العطاء العلمي تراجع نحو ألف عام وذلك بسبب دخول "الكاشيون"بلاد بابل،ثمّ واصلوه من جديد في عهد "نبوخذ نصر"، فصوّر العلماء الكهنة مسارات الشّمس والقمر ولاحظوا اقترانهما،كما لاحظوا الخسوف والكسوف، وكانوا أوّل من ميّز النّجوم الثّوابت من الكواكب السّيّارة تمييزا دقيقا، وحددوا تاريخ الانقلابين الشتوي والصّيفي، وتاريخي الاعتدالين الرّبيعي والخريفي،كذلك

[1]- ف.دياكوف، س.كوفاليف،الحضارات القديمة،ترجمة:نسيم واكيم اليازجي،ط1،دار علاء الدّين،دمشق،سوريا،2000م،ج1، ص113 – 114.

[2]- حبيب سعد،أديان العالم،دط،دار التّأليف والنّشر للكنيسة الأسقفية،القاهرة،مصر،دت،ص 51.

قاموا بتقسيم دائرة فلك البروج (أي: مسار الأرض حول الشّمس) إلى الأبرج الاثني عشر، وبعد أن قسّموا الدائرة إلى 360 درجة عادوا فقسّموا الدّرجة إلى ستين دقيقة والدّقيقة إلى ستين ثانية.

وكانوا يقدّرون الزّمن بالسّاعة المائية، وقسّموا السّنة إلى اثني عشر شهرا قمريا، والشّهر إلى أربعة أسابيع، وحاولوا أن يتخذوا لهم تقويما أسهل من هذا؛فقسّموا الشّهر إلى ستة أسابيع كل منها خمسة أيام، ولم يكونوا يحسبون اليوم من منتصف اللّيلة إلى منتصف اللّيلة التي تليها، بل كان عندهم من شروق القمر إلى شروقه التّالي،وقسّموا هذه المدة إلى اثني عشر ساعة في كل ساعة منها ثلاثون دقيقة، وبذلك كان طول الدّقيقة البابلية أربعة أضعاف ما قد يوحيه إلينا اسمها، إذن فتقسيم الشّهر عندنا إلى أربعة أسابيع وتقسيم ساعاتنا إلى اثني عشر ساعة،وتقسيم السّاعة إلى ستين دقيقة والدّقيقة إلى ستين ثانية، هذا كله من آثار بابلية لاشك فيها باقية من أيامهم إلى عهدنا المعاصر[1].

وخلاصة القول، بالرّغم من أنّه لم تجر في بلاد النّهرين محاولات نظرية لتفسير الكون، إلاّ أنّ الفلكيين البابليين لم يغب عنهم نوع من الفهم الدّقيق للكون. وعليه يمكن القول بدون مغالطة عن وجود علم فلكي حقّ في بلاد النّهرين، يستحق منّا كل الرّعاية والاهتمام.

2- الرّياضيات:

لقد بدأت الرّياضيات البابلية بالعمليات الحسابية البسيطة،تمّ تقدّمت فيما بعد،وممّا ساعد على هذا التّقدم النّشاط التّجاري مع البلدان المجاورة من جهة ومن جهة أخرى حاجتها للأعمال المتعلقة بتنظيم شؤون الرّي وشقّ الطّرق لتيسير التّجارة،ودعت الحاجة إلى ظهور الموازين والمقاييس المختلفة، وحساب المعاملات التّجارية وأرباحها والتّعرف على خواص الأشكال الهندسية، وبهذا وجدت بعض المصنفات الرّياضية كجداول الضرب ومعكوس الأعداد ورفعها إلى قوى مختلفة "الأس" وجذورها، بالإضافة إلى بعض المسائل والقواعد الرّياضية التي تُحل على أساسها. وفرض استعمال نتائج علم الفلك معلومات رياضية جمة؛ إذ كان البابليون فعلا قد

[1]- ول ديورانت،مرجع سابق،ص 250- 252.

اكتشفوا نظاما "ستينيا" كاملا وفق معه فيما بعد نظام عشري،وقد طبق مراقبو النّجوم هذا النّظام بسرعة ودقة لا مثيل لها في العصور القديمة.

واخترعوا باكرا نظاما للموازين والمقاييس قورن نسبة لما فيه من توازن داخلي بنظامنا المتري، واتخذت الوحدات الأساسية من قياس الطول، ومن تربيع إحداها كوّنوا سلسلة مقاييس، ومن تكعيب أخرى أوجدوا سلاسل المكاييل للأجسام السّائلة والجامدة،واشتقت سلسلة الموازين من حجم كمية الماء. وتسهيلا للحساب وضعوا جداول معيّنة،و كان هناك نماذج من أعمال حسابية أو هندسية وضعوا لها طرائق حل، وهكذا توصلوا إلى حل أعمال من الدّرجة الثّانية والثّالثة، وذلك بتطبيق قواعد عملية سهلة[1].

ومن روائع البابليين في الرّياضيات نجد "جسر الفرات الكبير" الذي أتاح للعلماء فرصة العثور على آثار المشاريع الكبرى التي نفذت في القديم على شواطئه، وبشكل خاص دراسة بنية الجسر الكبير المنصوب من ضفة إلى أخرى في وسط المدينة .أمّا الأعمدة المبنية من الآجر المستوي والإسفلت؛ فهي على شكل مكوك له زاوية بارزة من الأمام والوراء لقطع المجرى، وهذه الأعمدة هي أكثر اتّساعا عند القاعدة منها عند الأقسام العليا،ويبلغ طولها 21م في اتّجاه المجرى وسماكتها 9م.

وقد عثر المنقبون على سبعة من تلك الدعائم وقد أدهشت روائع الفن البابلي الإغريق كما أدهشت علماء الآثار، ففي "جوجزوان" (العراق) ثمّة قناة بطول280م وعرض 22م،كانت تقطع مجرى ماء صغير يفصل جسر من خمس قناطر من الأقواس القوطية بأعمدة تتصل بدعائم حائطية بشكل زوايا. وقد تطلب بناء هذه القناة مليونا حجر،حجم الواحد منها 50 سم^3،وقد نفذ هذا العمل الجبار حوالي سنة 700ق.م، ليزود مدينة " نينوى " بالماء بشكل أفضل. وعلى مسافة 50 كلم حصر المهندسون منابع "الغومل "وخرقوا الصّخر بفتح نفق ارتفاعه 20م،و كانت تطرح كل تلك الأشغال على شكل مسائل هندسية في المدارس تلك الأيام [2].

[1]- موريس كروزيه،تاريخ الحضارات العام،ط2،منشورات عويدات،بيروت،لبنان،1986م،مج1،ص 177.

[2]- مارغريت روثن،تاريخ بابل،ترجمة:زينة عازار و ميشال أبي فاضل،ط2،منشورات عويدات،بيروت،لبنان،1984م،ص65-67.

وعليه، لابد أنّ العلوم والمعارف قد نشأت في بلاد النّهرين، كما نشأت في غيرها من بلاد العالم القديم، لتحقيق أغراض عملية. ولعل الحاجة لضبط حسابات المعابد وغيرها من الأمور الاقتصادية؛ هي التي حتمت معرفة الأعداد ثمّ تدوينها، ومن ذلك نشأت الرّياضيات البابلية.

3- الطب:

لقد توصّل البابليون إلى الكثير من المعلومات عن الأمراض وتشخيصها، وعن تشريح الجسم والعقاقير النّافعة، وإن كان العلاج قد ظل مختلطا بالسّحر، لاعتقاد البابلي أنّ الأمراض تسببها أرواح وشياطين شريرة،والآلهة هي التي تساعد على التّخلص منها، ونظرا لأنّ العلاج كان كثيرا ما يتضمّن الرقى والتّعاويذ لاسترضاء الآلهة والحصول على مساعدتها في شفاء المرضى، فإنّ الأطباء كانوا من الكهنة،ومع هذا لم يهمل هؤلاء في علاجهم فن تشخيص الأمراض ووصف العلاج .

ويُستدل من النّصوص التي تركها البابليون على أنّ عدد الأطباء كان كثيرا، بحيث كان بعضهم يؤدي عمله كموظف رسمي خاصة لدى الملوك،وقد يرسل بعض الأطباء الرّسميين إلى ملوك بعض الأقطار الأخرى لعلاجهم،كذلك ينقسم الأطباء حسب تخصصهم إلى جراحين ومعالجين بالعقاقير، وقد عرفوا كثيرا من الأمراض ووصفوا أعراضها وعلاجها، وكيفية استعمال الأدوية المختلفة التي قسّموها حسب مصادرها إلى أدوية نباتية وأخرى حيوانية وثالثة معدنية،كما قسّموها من حيث الاستعمال إلى أدوية تستعمل من الظاهر أي: دهون وأخرى للتّناول، واستعانوا ببعض الأدوات لوضع الأدوية في أماكن دقيقة من الجسم مثل: العينين والأذن، إلى جانب استعمال بعض الأدوية الجراحية[1]. ويمكن تلخيص طريقة العلاج عند أطباء بابل كما يأتي:

الطريقة الأولى: معالجة المريض بالنّصح، وإذا استصعب أمر علاجه فإنّ أهل المريض يضعونه في مكان عام، فربما يمرّ إنسان قد أصيب بمثل هذا المرض فيصف علاجا لمريضهم.

[1] - محمّد أبو المحاسن عصفور،معالم حضارات الشرق الأدنى القديم،دط،دار النّهضة العربية للطّباعة والنّشر،دب ،1987م،ص 250.

الطريقة الثّانية: هي أشبه بالطّريقة المتبعة الآن في بعض المستشفيات، وهي طريقة التّشخيص ووصف الدّواء المستخرج من الحيوانات والمعادن والحشائش .

الطّريقة الثّالثة: استخدام الطّرق السّحرية والطّلاسم والخرافات، التي تمكّن مدّعي الطّب من السّيطرة على نفسية المريض[1].

وعليه، فقد توصل البابليون إلى الكثير من المعلومات عن الأمراض وتشخيصها، وإن كانت هذه الأمراض تفسر أحيانا باستخدام السّحر والخرافات، وطبعا هذا راجع إلى البيئة التي كان يعيش فيها البابلي، والتي يمكن القول عنها أنّها بدائية، بالرّغم من كل هذا إلاّ أنّه لا يمكن إهمال الدّور الكبير الذي لعبه البابليون في تقدم الطّب، وبلوغه ماهو عليه في يومنا هذا

المطلب الثّاني: الحضارة المصرية القديمة

كان معظم علماء مصر من الكهنة، ذلك لأنّهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها، يتمتّعون بما في الهياكل من راحة وطمأنينة؛ فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصرية رغم ما كان في عقائدهم من خرافات. فكانوا يعتقدون أنّ العلوم من اختراع "تحوت" إله الحكمة المصري، وأقدم الكتب في كل علم من العلوم كانت من بين العشرين ألف مجلد التي وضعها هذا الإله[2].

ولعل من أشق الأمور دراسة العلم المصري دراسة شاملة وافية، لأنّه وإن تناوله الباحثون بالدّراسة؛ إلاّ أنّ الكشف عن أسرار اللّغة المصرية وفك رموزها لم يتم إلاّ منذ فترة وجيزة، وعلى ذلك ظل العلم المصري غامضا بالنّسبة لهؤلاء الباحثين،إلى أن عثر" شمبليون " [3] "

---

[1]- علي عبد اللّه الدفاع،لمحات من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية،دط،دار الجيل للطّباعة،القاهرة،مصر، 1981م،ص78.

[2]- ول ديورَانت،قصة الحضارة،مرجع سابق،ج2،ص118.

[3]- جان فرانسوا شامبليون (1790م–1832م)،من كبار المستشرقين الفرنسيين.أول من فك رموز الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية)،له مؤلفات في اللّغة المصرية القديمة ومعجم هيروغليفي.(حجر عاصي،موسوعة ميزان المعرفة،ط1،دار الفكر العربي،بيروت،لبنان،1995م.ص156).

Champolion " أحد ضباط الحملة الفرنسية على"حجر رشيد"[1] المكتوب باللّغات الثّلاث: "الهيروغليفية" و"الديموطيقية" و"القبطية"، وعليه أمكن قراءة ما سجّله المصريون القدماء من نقوش ورسوم على جدران المعابد والهياكل بالإضافة إلى آلاف المخطوطات والبرديات التي حفظها جوّ مصر الجاف، واكتشاف هذه اللّغات أدى إلى ظهور الكتابة،فتقدمت بذلك العلوم والفنون، وبلغت التّقنية المصرية أوّجها، وذلك من خلال ما توصّل إليه المصريون في مختلف المجالات مثل:صناعة الأواني النّحاسية، صناعة الزّجاج الملوّن، نجارة الخشب، إعداد وصفات لإزالة التّجاعيد وصبغ الشّعر، تشييد الأهرامات،تشخيص ومعالجة مختلف الأمراض[2].

من خلال هذا المطلب سنعرّج على بعض العلوم المصرية التي كانت مزدهرة آنذاك، وسيكون تركيزنا على العلوم التجريبية فقط (الرّياضيات، الفلك، الطب...)، لأنّها تمثل محور بحثنا هذا. ومن بين هذه العلوم ما يأتي:

1- الرّياضيات:

إنّ معرفة الرّياضيات المصرية مستمدة من مخطوطات على "البابيروس""Papyrus "، أو الجلد المكتشف في مصر، فهناك ورقتان مجزّأتان من الإمبراطورية الوسطى (1900ق م- 1800 ق م) قبل المسيح، وهما:"بابيروس كاهون" "Papyrus de Kahoun" و"بابيروس برلين" "Papyrous de Berlin"، وهناك أيضا نصان أطول وأكثر حداثة بقليل، ولكنها نسخ بيّنة من كتب قديمة "بابيروس رند" "Papyrus Rhind" بالإضافة إلى مخطوطة على جلد قصير "بريتش ميزوم ليذر رول"ولوحتان من خشب في متحف القاهرة[3].

---

[1]- قطعة من البازلت الأسود،عليها كتابات باللّغات الثّلاث:الهيروغليفية والدّيموطيقية واليونانية، تعبر عن شكر الكهنة لبطليموس الخامس "أبيفانس" الذي عاش بين سنتي (210ق.م-181ق.م).وقد عثر عليه جنود نابليون أثناء حملته على مصر سنة 1899م قرب قلعة "سان جوليان" في مدينة رشيد، وهي حاليا إحدى مدن محافظة البحيرة الواقعة على النيل. (حجر عاصي،موسوعة ميزان المعرفة،المرجع السابق، ص 156).

[2]- عبد الحليم منتصر،تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه،ط8،دار المعارف،القاهرة،مصر،دت،ص 18- 19.

[3]- رنيه تاتون،تاريخ العلوم العام،ترجمة علي مقلد،ط2،مجد المؤسسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع،بيروت،لبنان،ص 32.

لقد وصل المصري إلى نتائج عظيمة في المقاييس والمساحة والحساب، وإن كان قد توصل إلى هذه النتائج بطريقة ساذجة فمثلا: في عمليات الضّرب والقسمة كان يسير خطوة خطوة بطريقة بدائية؛ فمثلا عند ضرب"5 ×8 " يصل إلى النّتيجة باحتساب تكرار العدد ثمانية من مرّة واحدة إلى خمس مرات. أمّا في حالة القسمة؛ فإنّه كان يتساءل عن المقدار الذي إذا ضرب في المقسوم عليه ينتج العدد المقسوم، أي أنّهم يصلون إلى خارج القسمة بضرب المقسوم عليه في أعداد، محاولين الوصول إلى خارج القسمة من جميع الأرقام الصغيرة التي تقابل في المجموع العدد المقسوم[1].

ولقد تقدمت الرّياضيات المصرية أعظم تقدم منذ بداية تاريخ مصر المدوّن؛ والشّاهد على ذلك "الأهرامات" التي يتطلب تصميمها وتشييدها الدّقة في القياس، ولا يُستطاع الوصول إليها بغير معرفة واسعة بالعلوم الرّياضية.

وأدى اعتماد الحياة في مصر على ارتفاع النّيل وانخفاضه إلى العناية بتسجيل هذا الارتفاع والانخفاض وإلى حسابهما حسابا دقيقا.و كان المسّاحون والكتبة يقيسون الأراضي التي محا الفيضان معالم حدودها؛وهذا القياس كان منشأ فن "الهندسة" الذي يطلق عليه باللّغة الأجنبية"Geometry"، مشتق من كلمتين معناهما "قياس الأرض". والأقدمون كلهم تقريبا مُجمعون على أنّ هذا العلم من وضع المصريين.

أمّا بالنّسبة للأرقام فكانت جدّ متعبة فعل سبيل المثال: رقم1 يمثل له بشرطة، ورقم2 بشرطتين، ورقم3 بثلاث شرط...، وتمثل العشرة بعلامة خاصة، والعشرون باثنتين من هذه العلامة، والثّلاثون بثلاث منها...إلخ.

أمّا المائة فتمثل بعلامة أخرى جديدة، كذلك الألف يمثل له بعلامة جديدة، أمّا المليون فكانت تمثله صورة رجل يضرب كفا بكف فوق رأسه كأنّه يعبّر عن دهشته من وجود مثل هذا العدد الكبير.وكاد المصريون أن يصلوا إلى الطّريقة العشرية في الأعداد؛ وإن لم يعرفوا الصّفر و لم يصلوا قط إلى فكرة التّعبير عن جميع الأعداد بعشرة أرقام، بل كانوا يعبّرون عن رقم " 999 "

[1]- محمّد أبو المحاسن عصفور،مرجع سابق، ص129.

مثلا بسبع وعشرين علامة، وكانوا يعرفون الكسور الاعتيادية، ولكن بسط هذه الكسور كان رقم 1 على الدّوام.

وتشير الدّراسات إلى أنّ أقدم رسالة في الرّياضيات عرفت في التّاريخ هي بردية "أحمس" التي يرجع تاريخها إلى مابين عام ألفين وألف وسبعمائة قبل الميلاد، وهي تحسب سعة مخزن للغلال أو مساحة حقل وتضرب لهذا الحساب أمثلة ثمّ تنتقل من هذا إلى معادلات جبرية من الدّرجة الأولى.

أمّا بالنّسبة للهندسة المصرية فلم تقتصر على قياس مساحات المربعات والدوائر والمكعبات بل كانت تقيس أيضا أحجام الأسطوانات والكرات، وقد وصلت إلى تقدير النّسبة التّقديرية ب 16,3 وما أعظم فخرنا إذا استطعنا في أربعة آلاف عام أن نتقدم في حساب هذه النّسبة التّقريبية من 16,3 إلى 1416,3[1].

كما رأينا، ورغم قلّة المصادر، لكن يمكن أخذ فكرة واضحة نوعا ما عن المعارف الرّياضية عند المصريين. فهذا الحساب وهذه الهندسة بقيا عند مستوى ضعيف نوعا ما، مقارنة بحساب وهندسة العصر الحديث.

2- الفلك:

إنّ المعلومات المتوفرة عن علم الفلك المصري جد قليلة، إذا ما قارناها بالعلوم الرّياضية والطّبية، فالمعارف النّجومية عند المصريين تستخرج من التّمثيلات النّجومية المقرونة بالأساطير والبادية إمّا فوق الأضرحة، أو من خلال "الرّوزنامات الانحرافية" التي تزيّن بعض التّوابيت،بالإضافة إلى البروج التي تزيّن سقوف بعض المعابد.

أمّا بالنّسبة للنّصوص المكتوبة على "البابيروس"، فلم تصلنا إلاّ في النّهايات الأخيرة لتاريخ مصر؛ والتي تخبرنا عن المعارف الفلكية عند المصريين مثل "بابيروس شعبية كارلسبرغ I-II " "Carlsbert" التي تصف لنا أسلوبا في تحديد مراحل القمر، كذلك يوجد في مصر كتب فلكية

[1]- ول ديورانت،قصة الحضارة،مرجع سابق،ج2، ص 119- 120.

أو على الأقل مجموعات من الوصفات العملية تشبه المجموعات المماثلة بالنّسبة إلى الحساب وإلى الطب، نجد أيضا النّصوص الفلكية الشّعبية الأخرى التي وصلت إلينا، والتي تتعلق بمواقع الكواكب في السّماء[1]. وبفضل هذه النّصوص القديمة، استطاع الباحثون الوصول إلى بعض الحقائق عن الفلك المصري.

أشرنا قبل قليل إلى قلّة مصادر علم الفلك المصري؛ وهذا راجع إلى كون الكهنة يرون أنّ دراساتهم الفلكية من "العلوم السرّية الخفية"، التي لا يحبون أن يكشفوا أسرارها للسّوقة من النّاس، فظل هذا العلم حكرا على هذه الطائفة دون غيرها، لكن مع هذا تتوفر لدينا بعض المعلومات عن الفلك المصري، وإن كانت قليلة، لكنها تعطينا تصوّرا عاما، على ما كان عليه علم الفلك المصري القديم آنذاك.

ومن مجهودات المصريين في علم الفلك؛اكتشافهم للتّقويم منذ خمسة آلاف سنة، وذلك عندما سجلوا طريقة حسابية على أحد معابدهم، وكانوا يرصدون النّجوم ويراقبون النّجم "سيروس" كل عام مع حلول الفيضان، واعتبروا السنة 365 يوم، وقسموا الأيام إلى 12شهرا، والشّهر إلى 30 يوما، وأضافوا في نهاية شهور السنة؛ الخمسة أيام للسنة العادية وستة أيام للسنة الكبيسة، والحول عندهم يكون ببداية الفيضان الأول للفيضان الذي يليه، وقرنوا مجيئه بظهور النّجم "سيروس" في سماء مصر، وبذلك تبدأ السنة الفرعونية الجديدة.

ووضع الحكيم " توت " تقويما للاعتدال الشّمسي وجعل السنة تبدأ بالاعتدال الخريفي (23 ديسمبر)،وجعل المدة بين الاعتدال الخريفي والرّبيعي 180 يوما ،والمدة بين الاعتدالين الرّبيعي والخريفي تعادل180,20 يوما، وقسّم السنة إلى 12 شهرا وجعل الشّهر 30 يوما، وأضاف بعد الشّهور الـ 12 خمسة أيام جعلها للآلهة...، وجعل توت اليوم 10ساعات والسّاعة 100 دقيقة، والدقيقة 100 ثانية، وأصبح هذا التّوتي يعادل 100 ألف ثانية (حاليا يعادل 86400 ثانية حسب الحساب الفلكي العالمي)، وفي عام 63 ق.م اتّخذ "يوليوس قيصر" التّقويم

[1]- رنيه تاتون،تاريخ العلوم العام،مرجع سابق، مج 1،ص 47.

التّوتي الفرعوني،تقويما للدّولة بعدما وزّع الأيام الخمسة في نهاية السنة، والتي كانت تضاف للعبادة. وطبق هذا التّقويم الجديد عام 48 ق.م[1].

وقسموا السنة إلى اثني عشر شهرا،وكل شهر إلى ثلاثين يوما، بحيث وزّعت الأيام " 360 " إلى ثلاثة فصول متساوية تكمّلها خمسة أيام (زيادة على السنة) وأطلق اليونانيون على هذه الأيام اسم "Epagomenes" أي: الزيادة، وتوزع الشّهور بين 3 فصول كل واحدة منها 4 أشهر وهي كما يلي:1- "الفيضان" (قحط)، 2- " الشّتاء" (بيرت) أي: خروج الأراضي من الماء، 3- "الصيف" (شيمو) أي: نقصان المياه[2].

ولقد اختاروا لبدء السنة اليوم الذي يصل فيه النيل عادة إلى أقصى ارتفاعه، والذي كانت فيه الشّعرى العظيمة (كانوا يسمونها "سوثيس") تشرق مع الشّمس. ولّما كان التّقويم المصري يجعل السنة "365" يوما بدل "365" وربع، فإنّ الفرق بين شروق الشّعرى وشروق الشّمس الذي كان من قبل صغيرا لا يكاد يدرك، قد ازداد حتى بلغ يوما كاملا في كل أربع سنوات. وبذلك حدث اختلاف بين التّقويم المصري والتّقويم الحقيقي بست ساعات في كل عام، و لم يصحح هذا الخطأ إلاّ بعد أن جاء فلكيوا الإسكندرية اليونان فأصلحوه بأمر "يوليوس قيصر" (46ق.م).

وذلك بإضافة يوم بعد كل أربع سنوات،ويطلق على هذا التّقويم "التّقويم اليوليوسي"، ثمّ صحح التّقويم تصحيحا أدق في عصر "البابا جريجوري الثّالث عشر"(1582م)؛وذلك بحذف هذا اليوم الزّائد (اليوم التّاسع والعشرين من فبراير) من السنين المتمّمة للمئات التي لا تقبل القسمة على 400،وهذا هو"التّقويم الجريجوري" الذي نستخدمه اليوم[3].

قسّم المصريون كذلك اليوم إلى ساعات النّهار وساعات اللّيل، وتوصلوا إلى معرفة ساعات النّهار بقياس الظّل على أسطح مستوية، كما وُجدت لديهم ساعات مائية لقياس الزّمن في اللّيل غالبا.

---

[1]- أحمد عوف،أحوال مصر من عصر لعصر،دط،العربي للنّشر والتّوزيع،القاهرة،مصر،دت،ص 22.

[2]- رنيه تاتون،مرجع سابق،مج1،ص 48.

[3]- ول ديورانت،قصة الحضارة،مرجع سابق،ج2ـــ،ص 121- 122.

كذلك قسّموا اللّيل إلى اثني عشر ساعة، ورصدوا الكواكب التي تظهر في تلك الساعات وسموا بعض النّجوم بأسمائها[1].

وعليه، لاشك أنّ علم الفلك الذي مارسه المصريون، كان بدائيا.و لكن المهم أنّهم بإدخال مزيد من الدّقة ومن الفعالية في حياتهم اليومية، وكان بإمكانهم كما في الحضارات البدائية الأخرى الكثيرة، أن يكتفوا بالشّهور القمرية، وبالسنين المبهمة، ولكنهم سعوا إلى الدّقة ما أمكنهم. وبهذا تفوّق المصريون على كثير من الحضارات القديمة.

3- الطب:

توجد برديات طبية كثيرة ويمكن تقسيمها إلى نوعين:النّوع الأوّل" المؤلفات الطّبية " ويرجع تاريخ كتابتها في قراطيس البردي على الأقل إلى الجزء المبكر من أيام الدّولة القديمة،ونذكر منها على سبيل المثال: " بردية إيبرس " " Ebers " ،"بردية أدوين سميث الجراحية " ، "بردية تشستر الطّبية " " Chester- Beat "، " بردية هرست " "Hearst "...، أمّا النّوع الآخر "مجموعات من الرقى والتّعاويذ السّحرية"، حسب الاعتقاد السائد عند قدماء المصريين في طرد الأمراض من الجسم[2].

لقد كانت بدايات الطّب المصري مرتبطة بالسّحر؛بحيث كانت التّمائم أكثر شيوعا بين النّاس من حبوب الدّواء لعلاج الأمراض أو الوقاية منها.وكان المرض في اعتقاد المصري ما هو إلاّ تقمّص الشّياطين الإنسان،وعلاجه يكون بتلاوة التعويذات والعزائم،فعلى سبيل المثال:الزّكام،كان يعالج بمثل هذه العبارات السّحرية" أخرج أيّها البرد يا ابن البرد،يا من تهشم العظام،وتتلف الجمجمة وتمزّق مخارج الرّأس السّبعة،أخرج على الأرض.دفر.دفر.دفر." .كان المصري يظنّ كذلك أنّ الأوعية الدّموية تحمل هواء وماء ونفايات من السّوائل،وأنّ القلب والأمعاء هما مركز العقل،وغيرها من الخرافات التي كانت سائدة آنذاك.

[1]- محمّد أبو المحاسن عصفور،معالم حضارات الشّرق الأدنى القديم،مرجع سابق،ص 128.

[2]- محمّد عبد الحميد،الفراعنة والطّب الحديث،دط،دار المعارف،القاهرة،مصر،دت،ص 39- 40.

لكن الأمر لم يبق على حاله،وذلك بظهور أطباء العظام والجراحين والأخصائيين الذي ساروا في صناعة الطّب، على قانون أخلاقي ظل يُتوارث جيلا بعد جيل.وكان من المصريين أخصائيون في التّوليد وأمراض النّساء،ومنهم من لم يكن يعالج إلاّ اضطرابات المعدة،ومنهم أطباء العيون...إلخ.

وتحدثنا برديانهم وأجسامهم المحنّطة عن: تدرن النّخاع الشّوكي، تصلّب الشّرايين، الحصوات الصّفراوية، الجدري، شلل الأطفال، فقر الدّم، التهاب المفاصل، الصّرع، النّقرس، التهاب النّتوء الحلمي والتهاب الزائدة الدّودية، وبعض الأمراض العجيبة،كالتهاب الفقري الأشوه، وما يعتري نمو كراديس العظام الطّويلة من نقص...إلخ[1].

ويظهر إبداع المصريين في الطب من خلال عملية التّحنيط،التي ارتبطت بالموت والحياة الأخرى لذلك حافظوا على أجسادهم وعلى ملامح الوجه، حتى تتعرف عليها الرّوح عندما تعود مرة أخرى وتتقمصها، ولهذا قام المصري القديم بعملية التّحنيط التي تعتبر إحدى المعجزات العملية التي قدمها الفراعنة للبشرية جمعاء.

كانت عملية التّحنيط تستغرق سبعون يوما،تتم وفق الخطوات التالية:تبدأ بتفريغ الجمجمة بواسطة مثقاب في آخره خطاف يدخل في فتحة الأنف أو ثقب بالفم،ثمّ تفرغ الأحشاء من البطن ماعدا الكليتين،وكذلك القلب الذي كان وجوده بالجسم عنصرا مهما في الحياة الأخرى،وبعد ذلك يُملأ فراغ البطن بكتان مغموس في مواد راتنجية[2] وعطرية ومواد أخرى، ثمّ يقفل البطن بواسطة الخياطة، ثمّ يغمس الجسم في ملح النّطرون لاستخراج الرطوبة والمواد الذهنية منه، ثمّ ينظّف الجسم بمحلول النّطرون ويدهن بزيوت عطرية، وأخيرا تلف الجثة بكتان مغموس في مواد راتنجية وتوضع في القبر[3].

---

[1]- ول ديورانت،مرجع سابق،ج 2،ص 123 وما بعدها.

[2]- مادة صمغية من مصادر طبيعية. وتستخدم في مواد التلميع والأدوية والصابون والأصباغ (البوية)، وفي مجالات أخرى. وقد حلّت المادة الصناعية محل المادة الطبيعية بشكل كبير. راجع (الموسوعة العربية العالمية ، مرجع سابق،ج 11، ص 18-19) .

[3]- حسن سعد اللّه،من أسرار الفراعنة،دط،مطبعة أولاد عبده أحمد،القاهرة،مصر،دت،ص 18- 20.

كذلك أسّس المصريون القدامى حضارة علمية في الصّيدلة يقول عنها " المؤرخ جابين(إنّ المصريين كانوا منجما اغترف منه الأقدمون بكل حرية وانطلاق،دون أن يذكروا فضلا للأصحاب الأصليين وإنّ العقاقير وأوصافها المذكورة في أعمال " ديسقوريدس "و" بليني " وغيرهما،كان من الواضح جدا أنّها مأخوذة من المصريين القدماء).

وقد اكتشف المصريون القدامى الصّفات العلاجية للأعشاب الطّبية؛حيث نشأ العشّاب الأوّل ونشأت صناعة العقاقير النّباتية،وكان " تحوت المري" أحد العشّابين العظام،وهو مؤلف التّوليفات التي مكّنت الأطباء من علاج الأمراض،وله ستة مؤلفات في التّشريح والأمراض الباطنية و أمراض النّساء،والجراحة والصّيدلة.

والمعتقد أنّ كلمة " Pharmacist " وهي المرادفة لكلمة صيدلي في العربية، إنّما مشتقة من الكلمة الفرعونية " فارماكي" وتعني تحضير الأدوية من العقاقير، وكان المصريون القدامى أوّل من فصل بين علمي الطّب والصّيدلة.

ووضعوا دستورا للأدوية مدوّنا على أوراق البردي، ويضم مجموعة كبيرة من التّركيبات الدّوائية مع تسمية كل عقار وتحديد الجرعة المناسبة، وطريقة تناولها،ويرجع تاريخ هذه البردية إلى"1550ق.م"، وتسمى بردية "أيبرس" والتي ذكرناها سابقا، وتوجد أيضا برديات أخرى زاخرة بالمعلومات الصيدلية المتقدمة، منها البردية الطّبية وتضم أكثر من "200" وصفة دوائية، مع تعليمات تناول الدّواء سواء أكان ليلا أم نهارا، قبل الأكل وبعده،و كميات العناصر الدّاخلة في الوصفة...، من الواضح أنّ لهذه البرديات أهمية خاصة عند المصريين القدماء وهذا ما جعلهم يحرصون على تدوينها،لتكون أساسا تابتا لفن الصيدلية بمختلف فروعه[1].

وعليه، سواء تعلّق الأمر بالطّب أو الصّيدلة، فالقليل الذي يعرفه المصريون، كانوا يستحقون عليه الثّناء، لأنّهم عثروا عليه منذ ثلاثين قرنا قبل عصرنا، فهم بذلك فتحوا الطّريق أمام الطّب الإغريقي الذي كان في معظمه طب الغرب حتى القرن السابع عشر الميلادي.

[1]- عبد الحليم منتصر،تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه،مرجع سابق،ص 19- 20.

الفصل الثاني

موقف المسيحية من العلم التجريبي في القرون الوسطى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: مدخل تمهيدي

المطلب الأول: العلم في النّصوص الدّينية المسيحية

تعريف العلم اصطلاحا:

علم الإنسان شيئا: عرفه. فالعلم هو المعرفة وإدراك الشيء بحقيقته، ومجموع مسائل وأصول كلية تدور حول موضوع واحد، وتعالج بمنهج معيّن، وتنتهي إلى بعض النّظريات والقوانين كعلم الزراعة، وعلم الفلك، وعلم الطّب...، وهكذا. وقد كان للعلم عند فلاسفة اليونان مفهوم عقلي. فالمعرفة كان لها مدلولان، فكان هدف الدّيانات السّرية اليونانية هو اكتساب المعرفة السّرية اللاّزمة للخلاص، وكان السّبيل إلى ذلك هو "الرؤى" أو "الاستنارة الدّاخلية" دون اعتماد على العمليات العقلية المعهودة ثمّ في دائرة استخدام بعض الكلمات والطقوس والرّموز السّحرية لصنع الخوارق.

ويحذر الرّسول بولس تلميذه "ثيموثاوس" قائلا: "احفظ الوديعة معرضا عن الكلام الباطل الدّنس، ومخالفات العلم الكاذب الاسم". ويتفق كتبة العهد الجديد مع الغنوصية في أنّ هناك معرفة تؤدي إلى الخلاص، ولكنها ليست الفلسفة والغرور الباطل... حسب أركان العالم، بل هي معرفة الرّب يسوع وموته الكفاري عن العالم، وهذه المعرفة ليست سرية أو خفية، ولكنها سرّا مكتوبا في الأزمنة الأزلية، ولكنه أظهر الآن وأعلم به جميع الأمم.

وهذه المعرفة تمنح المؤمنين قوة على التّغلب على الخطيئة، والحق في أن يصيروا أولاد اللّه، فالجميع يملك كل سلطان وقد أعطى هذا السلطان لمن يتبعونه، أي الذين يعرفونه معرفة حقيقية، فالمسيح هو المدخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم. وهذا ما يميّز المعرفة المسيحية عن مفاهيم المعرفة اليونانية الفلسفية. فالمعرفة المسيحية يجب أن تظهر في سلوك المؤمن. فالمعلّم المسيحي يجب أن لا يكتفي بالتّعليم، بل عليه أن يعيش ما يعلّمه[1].

وقد ورد ذكر مصطلح "العلم" في نصوص العهد الجديد بصيغ مختلفة، ومنها :المعرفة، الفطنة والعلم، ويمكن أن نورد المواضع التي وردت فيها هذه الكلمة "العلم" كالآتي :

[1]- القس صمئيل حبيب،دائرة المعارف الكتابية،دط،دار الثّقافة،دب،دت،مج 5،ص 301 – 302 .

لو 1: 27 لتعطي شعبة معرفة الخلاص.

11: 52 أخذتم مفتاح المعرفة .

رو 2: 20 ولك صورة العلم والحق.

11: 33 غنى اللّه وحكمته وعلمه.

15: 14 ومملوؤون كل علم.

1كو 1: 5 في كل كلمة وكل علم.

8: 1 فنعلم أنّ لجميعنا علما.

7 ولكن ليس العلم في الجميع.

10 أن رآك أحد يا من له علم.

11 فيهلك بسبب علمك الأخ.

2كو 2: 14 ويظهر بنا رائحة معرفته.

4: 6 لإنارة معرفة مجد اللّه.

8: 7 في الإيمان والكلام والعلم.

أف 3: 19 محبة المسيح الفائقة المعرفة.

1 بط 3: 7 كونوا ساكنين بحسب الفطنة[1].

إذن من خلال ما سبق يتضح أنّ معاني العلم في المسيحية تدور حول المعرفة والفطنة والعلم.ونلاحظ أيضا أنّ هذه المعاني تتمحور حول اللّه والمسيح وأنّها متعلقة بهما كثيرا .

[1] – القس غسان خلف،الفهرس العربي لكلمات العهد الجديد اليونانية، دط، دار النّشر المعمدانية، بيروت، لبنان،1979م ص 161.

المطلب الثّاني: الأوضاع العامة في أوروبا القروسطية

بعد انهيار الإمبراطورية الرّومانية في غرب أوربا، واجتياح الجرمان لغرب أوربا، تغيّر المجتمع الأوروبي تغيّرا أساسيا، و كان له أثره الكبير على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسّياسة. ومن جراء الهجرات الجرمانية إلى أوربا، أصبحت مدن أ وربا غير آمنة على نفسها، ولذلك انتقل أعيان المدن إلى قصورهم في الرّيف وأحاطوا أنفسهم بأتباعهم وأعوانهم، وكان على رأس هؤلاء الفلاحين والعسكريين، ومن هنا قامت وحدات اقتصادية دفاعية شبه مستقلة في الرّيف. يُضاف إلى ذلك تواجد بعض الأديرة التي كان رهبانها يزرعون الأرض ويشتغلون ببعض الصّناعات اليدوية.

ويُضاف إلى ذلك أيضا أنّ الطرق لم تعد صالحة لما أصابها من التّخريب أو الإهمال؛ فتوقف تبادل السّلع مع المدن. ومع صعوبة الاتّصال بين المدن والقرى، سعى الأعيان إلى الاكتفاء الذّاتي داخل القرية، وبدأت الضياع تصنع العديد من البضائع التي كانت تشتريها من المدينة، وأصبح أعيان الرّيف يعيشون عيشة التّرف، وكوّنوا أرستقراطية[1] إقطاعية، وتطوّر الحال وأصبح للأعيان محاكمهم الخاصة وجيوشهم للدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم[2].

وتأسيسا على ما سبق بدأت الكنيسة في تشكيل الممتلكات من الهبات التي حصلت عليها في عصر الإقطاع، ثمّ تحويلها إلى مؤسسة إقطاعية، ولم تكن الهبات وحدها كانت تعمل على تحويل الكنيسة إلى مؤسسة إقطاعية، بما تحويه من ممتلكات وأموال، لكن جميع المؤثرات الأخرى المحيطة أيضا كان لها دور في ذلك.

كانت ثروة الكنيسة الهائلة تُستمد من اعتمادها على قطع الأراضي التّابعة لها، والتي كانت تقع طبيعيا ضمن النّظم والمجالات الإقطاعية. فقد منحت السّلطات الكنسية الكثير من الأراضي والممتلكات للكنيسة، خلال عهد الإقطاع؛ وبالتّالي أصبحت الكنيسة بمثابة مالك له الحق في التّصرف في تلك الأراضي على النّحو الذي تريد، ولذا فإنّ الأديرة والأسقفيات التي كانت في

---

[1] – طبقة اجتماعية ، كانت تشمل قادة الحكم في الدولة أو الأمة. يدّعي أعضاؤها أنهم أرفع منزلة من غيرهم من النّاس في المجتمع بسبب صلاتهم الأسرية ومكانتهم الاجتماعية وثرواتهم وقدراتهم. وتشير هذه الكلمة تاريخيا إلى شكل من الحكم يسيطر عليه عدد قليل من المواطنين الأثرياء وذوي المكانة الاجتماعية البارزة. راجع:(الموسوعة العربية العالمية،مرجع سابق،ج1،ص506).

[2] – محمّود سعيد عمران،حضارة أوربا في العصور الوسطى،دط،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية،مصر،1998م،ص 59 – 60.

ذلك البلد أو غيره، أصبحت معنية وملزمة بتوفير قوى عاملة مدنية؛ لرعاية شؤون الممتلكات التي تسيطر عليها، ولكن على النّسق الإقطاعي الطّاغي في تلك الفترة، وبالتّالي فإنّ الأراضي التي كانوا يمتلكونها بدأت في التّحول لتصبح بمثابة إقطاعات كما الحال عند السّادة النّبلاء، وكانت معظم الأراضي التي حازتها الكنيسة إنّما بدعوى استخدامها لأغراض كنائسية وخدماتية، ولكن رجالات النّظام الكهنوتي أنفسهم كانوا يمتلكون أراضي خاصة بهم.

فكثيرا ما كان مالك الأرض أسقفا أو رئيس دير، وبالرّغم من أنّ الكثير من الرّهبان كانوا يعملون بأيديهم، وأنّ الكثير من الأديرة والصّوامع كانت تبنى بمساهمات مادية، إلاّ أنّ الدّعم المادي الإضافي كان ضروريا لبناء صروح كنائسية ضخمة، وقد كان معظم الدّعم يأتي عن طريق الملوك والنبلاء .وذلك بمنح قطع أراضي للبناء أو بمساهمات مادية ناتجة عن الدّخل الإقطاعي الوارد لخزينة الدّولة أو لخزينة أحد النبلاء، ومع بدأ جمع تلك المساهمات، أصبحت الكنيسة أكبر مالك للأراضي في أوربا، وأكبر عنصر في المؤسسة الإقطاعية، وكان من بين الأديرة ما يمتلك مساحات أراضي مبنيّ عليها ما لا يقل عن 1500 مسكن ضخم[1]. وعندما زالت الظروف التي أوحت بهذا النّظام أصبح الإقطاع عبئا ثقيلا على كاهل النّاس.

فحياة طبقة رقيق الأرض (طبقة الفلاحين) التي كونت نسبة كبيرة من المجتمع الإقطاعي الوسيط، كانت حياة قاسية وتفتقر إلى الاستقرار والأمانة. ولقد عارض النبلاء تحويل أراضي الغابات إلى أراضي زراعية؛ وذلك لرغبتهم في الاحتفاظ بأراضي خاصة للصّيد. وإزاء هذا الوضع فكّر الكثيرون في السّعي على مصادر الرّزق خارج أوربا. وبذلك لبوا دعوة البابا للذهاب إلى الشّرق للدّفاع عن الأراضي المقدسة. أمّا النبلاء أنفسهم فقد اشتركوا في هذه الحملات وشجعهم على ذلك أنّ الإقطاعات في غرب أوربا لم تعد تكفي أفراد العائلات النّبيلة المتزايدين.

وكان من آثار الحروب الصّليبية (التي بدأت في نهاية القرن 11م) على الغرب، أن أخذ العهد الإقطاعي في التّدهور عندما قضت هذه الحرب على الكثيرين من أمراء الإقطاع ممّن أسهموا فيها فأدى ذلك إلى الاستغناء عن الكثيرين من رقيق الأرض الذين أخذوا يتفرغون للتّجارة والصّناعة، فلما أخذت التّجارة تنشط تبع ذلك حركة ظهور المدن، فأخذت معها الحركة الفكرية تنتعش منذ القرن الثاني عشر، بتوفر الثّروة واتّساع الأفق الاقتصادي.

---

[1] – نيفين ظافر حسب الكردي، الأوضاع الدّينية والسّياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التّاسع حتى القرن الحادي عشر، إشراف: رياض مصطفى أحمد شاهين، غزة، فلسطين، ص9–10 (رسالة ماجستير).

فقد كان لنشأة المدن فضلها في رعاية نهضة العلوم والفنون، فمنذ ظهرت هذه النّهضة، فلم يكن هناك مدينة في أوربا منذ القرن الثّاني عشر فصاعدا إلاّ وبها مدرسة، ولها أرشيفا وسجلات ممّا أدى بالتّدريج إلى انتقال مراكز التّعليم من المؤسسات الكنسية والأديرة إلى مدارس المدن، فانتعشت على يد المدن وسكانها من البرجوازية؛ الحركة الفكرية[1].

وقد أخذت تلك المدن تتحرر من سيطرة الأمراء الإقطاعيين، وتمكنت الطّبقة المتوسطة (البرجوازية) التي تضمّ التّجار والصّناع أن تتسلّم السّلطة في المدن، وقد أطلق على تلك المدن التي استطاعت أن تحقق لنفسها كيانا سياسيا واقتصاديا مستقلا، اسم "القومونات"، كما أصبح لكل منها قوانينها ونظمها ودستورها الخاص، وأدى التّبادل التّجاري بين البلدان القريبة والبعيدة إلى تبادل الأفكار والمعارف الجديدة، فتغيّرت نظرة النّاس إلى الحياة وأخذوا يخرجون عن المألوف، ويحكمون عقولهم فيما يشاهدونه ويسمعونه، وأفضى التّطوّر الفكري إلى رفض النّاس لبعض آراء الكنيسة، التي ظلت طوال العصور الوسطى تتحكم في تفكيرهم وتوجهه وفق ما تمليه مصالحها.ومنذ القرن الثّاني عشر أخذت المدن التّجارية الصّناعية الجديدة، تسهم في تطوير الثّقافة والتّعليم. فلقد استلزم النّشاط التّجاري قدرا من الثّقافة وإلماما بالقراءة والكتابة ومبادئ الحساب. وعلى هذا لم تعد مدينة في أوربا الغربية إلاّ وبها مدرسة، وتدريجيا انتقلت مراكز التّعليم من المدارس الكنسية (الكاثدرائية والدّيرية) إلى مدارس المدن، كما فتحت تلك المدارس أبوابها لجميع الرّاغبين في الدّراسة دون تمييز بين غنيّ وفقير[2].

وعليه، فهذه بعض الملامح العامة للأوضاع في أوربا القروسطية، والتي يمكن القول عنها أنّها جدّ صعبة، بحيث سيطر عليها النّظام الإقطاعي، الذي كان سببا في انتشار الفقر والجهل.ونتيجة لهذه الأوضاع؛ تدنى المستوى الفكري الأوروبي، وعاشت أوربا فترة من الجهل والظلام، لكن بظهور المدن وازدهار التّجارة والصّناعة بدأت أوربا تفيق من سباتها، وذلك من خلال النّهضات الفكرية التي شهدت، وعلى رأسها نهضة القرن الثّاني عشر الميلادي، والتي عرفت بازدهار العلوم وإنشاء المدارس والجامعات. وسنأجل الحديث عن هذه النّهضة فيما بعد.

[1] – عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التّاريخ الأوروبي والأمريكي،مرجع سابق،ص7-9.

[2] – نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص 271- 272.

المبحث الثّاني: المسيحيون والعلم

بعد أن دخل قستنطين في النّصرانية، توقف الاضطهاد عن النّصارى وأخذوا في إظهار آرائهم، وممارسة طقوسهم باطمئنان فأصبحت النّصرانية دين الدّولة بعد أن كانت في الأمس القريب دينا محرّما، وعُقد عدة مجامع، كان من أشهرها، مجمع "نيقية" سنة ٣٢٥ م، وبعد مناظرات الأساقفة بحضور"قستنطين أقر المجمع عقيدة تأليه المسيح، والقول بالتّثليث، واختيار الكتب التي تؤيد تلك القرارات، وحرق الأخرى. فبعد أن وقع للنّصارى ما أرادوا، رأت الكنيسة وأتباعها أهمية إبعاد الآثار الإغريقية، وكذا حرق الكتب والمكتبات، وما ذاك إلاّ لخوف الكنيسة من الآراء والأفكار التي قد تتعارض مع ما تذهب إليه، فيفقد رجالها الثّقة فيهم، ويخسرون مكانتهم ومنافعهم. ومن أجل ذلك انتهج رجال الدّين سياسة الرّفض والإقصاء ضد العلم، وهذا ما سنحاول الحديث عنه من خلال هذا الفصل إنشاء اللّه.

المطلب الأول: وظيفة رجل الدّين

منذ ظهور المسيحية وبدء انتشارها انتظم المسيحيون في كنائس لكل منها أسقف يُنتخب من قبل جماعة من المؤمنين، ويساعده في مهمّاته بعض القساوسة [1] والشّماسة[2]، وعدّت كل جماعة مسيحية أسقفها خليفة للبشر الأول الذي بشّر بالمسيحية في أرضها. وامتاز التّنظيم في العصر المسيحي الأول بالبساطة المطلقة؛ إذ لم تقم حدود فاصلة بين رجال الدّين وسائر الجماعات المسيحية، وتدريجيا تشكّل نظام التّسلسل في السّلطات الكنسية حسب التّقسيمات الإدارية في

---

[1]- قس :كلمة سريانية معناها "شيخ"، والكلمة في الأصل اليوناني "برسبوتروس" " Bresbuteros" ومعناها "شيخ"، وقد ترجمت هذه الكلمة شيوخ ومشايخ أو عجائز،اثنين وستين مرّة في العهد الجديد، وإلى "أكبر" (لو 15:25) وإلى "القدماء" (عب11:2).وقد ترجمت إلى "قسوس"مرتين (أع 13:23 – 2:17) . راجع (القس صموئيل حبيب ،دائرة المعارف الكتابية

، مرجع سابق ،مج 6 ،ص212).

[2]- لم ترد هذه الكلمة "شماس" أو "شماسة"في التّرجمة العربية للكتاب المقدس (ترجمة فانديك) إلاّ في موضعين: (الرّسالة إلى فيلبي (1:1) و(الرّسالة إلى ثيموثاوس (7:3-13) .ولكن الكلمة اليونانية وهي :"دياكونوس" " Diakonos"ومعناها "خادم" تذكر نحو ثلاثين مرة في العهد الجديد.ويُذكر الفعل منها وهو "دياكونيو" " Diakoneo" ومعناها "يخدم"، والاسم ومعناه "خدمة" نحو سبعين مرّة أخرى . وفي معظم هذه المائة مرّة لا توجد أدنى إشارة إلى وظيفة معيّنة في الكنيسة.والمعنى الأساسي لكلمة "دياكونوس"في اليونانية هو ّخادم".وقد استخدمت في اليونانية الكلاسيكية للدلالة على خدمة المعابد . وفي يونانية العهد الجديد استخدمت للدّلالة على خدام الملك. راجع (دائرة المعارف الكتابية ، مرجع نفسه ، مج 4 ،ص 553) .

الإمبراطورية الرّومانيـــة: أسقف في المدينة، رئيس أساقفة (مطران) في عاصمة كـــل أبروشـــية بطريرك في أمّهات المدن المسيحية وهي: القدس، أنطاكيا، الإسكندرية، قرطاجة، روما، وفيمـــا بعد القسطنطينية، وكان هؤلاء البطاركة السّتة يشكلون أعلى سلطة كنسية، ويتبع كل واحـــد منهم رؤساء الأساقفة الذين يشمل نفوذ الواحد منهم عدّة أسقفيات، ثمّ الأساقفة الذين يشـــرف كل منهم على شؤون الكنيسة في إقليم معيّن يتبع كرسيه الأسقفي، وفي أدنى السّلم الكهنوتي يأتي قســـيس القريـــة الذي يتبـــع أبرشية[1] معيّنة. وهكذا ظهر سلّم كهنوتي متـــدرّج في المناصـــب يشبـــه إلى حد كبـــير سلّم الوظائـــف الإدارية في الإمبراطورية الرّومانية.

وبعد الاعتراف بالدّيانة المسيحية في عهد الإمبراطور "قسطنطين الأوّل" تحوّلت الكنيسة من منظمة بسيطة ديمقراطية إلى هيئة ذات إدارة بيروقراطية [2] مركزية، كذلك أدت الثّروات الكبيرة والهبات التي أُغدقت على الكنيسة إلى اختفاء روح البساطة والأخوّة والمساواة؛ إذ دخلت محلـــها مسحة من الأبّهة والتّعالي والتّباعد عن جمهور المؤمنين .لقد تشبّه الأساقفة بـــالأمراء وأحـــاطوا أنفسهم بالحشم والخدم والموظفين، كما أقاموا في قصور تفوق قصور الحكام في مظاهر الأبّهـــة والرّفاه والعظمة[3]. وكان المسيحيون كما يعتقـــدون قد أقـــام بطرس الرّســـول خليفـــة لـــــه لـــيرأس الحواريين ويدبّر شؤون المسيحيين، وقد أنشأ بطرس كنيسة روما، والبابا خليفة بطرس في رياسة هذه الكنيسة وفي إدارة شؤون المسيحيين؛ فالبابا على هذا خليفة للمسيح، لـــه ســـلطاته ومكانته.

---

[1] – وحدة صغرى من وحدات الكنيسة الإنجليزية. وهي أيضا قسم من أقسام المركز الإقليمي في بريطانيا (وحدة من وحـــدات الحكم المحلي). يرأس الأسقف الكنيسة الخاصة بالأبرشية، والأبرشية جزء من الأسقفية وهنـــاك حـــوالي13,600 أبرشـــية في بريطانيا. راجع (الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق،ج1،ص 75).

[2] – نظام لتنفيذ وظائف حكومية، أو وظائف هيئة خاصة؛ حيث توزع السلطة اللازمة لأداء الواجبات الروتينية المتعددة علـــى أقسام تسمى المكاتب. وفي الحالات التي تطبق فيها أنظمة بيروقراطية متوسعة تكون السلطة في يد عدد من الموظفين بدلاً مـــن الرئيس أو المدير؛ إلا أن هذا المدير قد يكون مسؤولاً عن تصرفات كثير من صغار الموظفين والمستخدمين، وقد اشتق التعبير من كلمة فرنسية معناها مكتب.ويظهر هذا النّظام غالب الأحيان في الهيئات الكبيرة المعقدة؛ مثل المصالح الحكومية التي تســـتدعي وجود العديد من المستخدمين لتوفير خدمات خاصة متعددة. ويظهر أيضا في المؤسسات والمدارس وغير ذلك مـــن الهيئـــات. راجع: (الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق،ج5 ،ص428) .

[3] – نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص181–182.

وقد باشر رجال الدّين هذه السّلطات بكثير من التّوسع بل النّزق[1] أحيانا، فأخذوا يبيعون صكوك الغفران، ويُصدرون قرارات الحرمان حتى على الملوك والعظماء، وأصبحت الكنيسة بذلك هي التي تفهم الكتاب المقدس، وهي التي تُصدر القرارات بناء على هذا الفهم وبناء على العلم الذي يُدوّن والذي يتوارثه الباباوات، ولا معقّب لما تقوله الكنيسة: (وعلى النّاس أن يتلقوا قولها بالقبول، وافق العقل أو خالفه، وعلى المسيحي إذا لم يستسغ عقله قولا قالته أو مبدأ دينيّا أعلنته أن يُروّض عقله على قبوله، فإن لم يستطع فعليه أن يشك في العقل ولا يشك في قول البابا).

ومن الأشياء التي أعلنتها الكنيسة (رجال الدّين) عدّة مسائل لا أصل لها في الأناجيل المعروفة، ولا يستسيغها العقل ومن بين هذه المسائل مسألة "غفران الذنوب"، فإذا أراد البابا أن يبني كنيسة أو يجمع مالا لشيء ما؛ طبع صكوك الغفران ووزّعها على أتباعه ليبيعوها للنّاس كالذين يبيعون أسهم الشّركات أو أوراق اليانصيب، وبالصّك فراغ ترك ليُكتب به اسم الذي سيُغفر له، والعجيب أنّ هذا الصّك يغفر لمشتريه ما تقدّم من الذنوب وما تأخّر، فهو بعبارة أخرى إذنٌ بارتكاب الجرائم بعد أن ضُمنت الجنّة لهذا المحظوظ، وفيما يلي نص لصك غفران :« ربنا يسوع المسيح يرحمك يا...(يكتب اسم الذي سيُغفر له) ويُحلّك باستحقاقات آلامه الكلّية القدسية، وأنا بالسّلطان الرّسولي المعطى لي أحلّك من جميع القصاصات والأحكام والطّائلات الكنسية التي استوحيتها، وأيضا من جميع الإفراط والخطايا والذّنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة، ومن كل علّة، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا، والكرسي الرّسولي، وأمحو جميع أقذر الذنوب وكلّ علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي تلتزم بمكابدتها في المطهر وأردّك حديثا إلى الشّركة في أسرار الكنيسة، وأقرنك في شركة القديسين، وأردّك ثانية إلى الطّهارة والبرّ اللّذين كانا عند معموديتك، حتى أنّه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الرّوح. وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النّعمة تبقى غير متغيّرة، حتى تأتي ساعتك الأخيرة، باسم الأب والابن والرّوح القدس»[2].

---

[1] – النَّزَقُ: خفّة في كلّ أمر وعجلَة في جهل وحمق راجع: (ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق،ج10، ص352).

[2] – أحمد شلبي،المسيحية،مرجع سابق،ص 254–255.

و لم تقف قضية غفران الذّنوب عند هذه الصّكـــوك، بل سرعان ما دخلـــها عنصر جديد فاضح؛ ذلك ما يســـمى "الاعتراف" فكـــان على المذنب أن يعترف بذنبـــه في خلـــوة مـــع قسيســـه؛ ليستطيع القسيس أن يغفـــر له ذنبـــه، وفي خلوات الاعتراف حدثت أشياء يقشعر لها الوجـــدان، وقد نشرت المجلة المسيحية "رسالة الحياة" صورا من ذلك يندى لها الجبين، وذكرت أحداثا محددة اعتدى فيها رجال الدّين أو حاولوا العدوان على المعترفات[1].

ومن أهم العوامل التي جرّت الأساقفة إلى الفواحش القيود الشّديدة على زواجهم، فالقيود الفطرية من ناحية وعقائد الكفارة والاعتراف من ناحية أخرى؛ جعلتهم ينغمسون في الـــذّنوب. ورغم أنّ قصة انغماس الأساقفة في المنكرات قصة قديمة إلاّ أنّ تسجيلها التّاريخي بدأ في القـــرن الثّامن حين رفعت شكوى إلى البابا "زكري" "Zachary"، بأنّ معظم شمّاسة الكنيسة ومـــن يساويهم في المناصب لديهم أربع أو خمس محظيات، وبمرور الزّمن وصل الأمر إلى درجة أنّ النّاس بدأوا يفكرون في الطّرق التي يحمون بها زوجاتهم وبناتهم من أيدي الأساقفة، فقد كـــان النّـــاس يصرّون في بعض المناطق على أن يتمتـــع الأسقف الـــذي لم يسمح له بالزّواج من قبل الكنيسة بعدد من المحظيات، وذلك لكي لا يُتعدى إلى بيوتهم ونسائهم، فسعد الأساقفة بهـــذا الاقتـــراح، وانتهزوا هذه الفرصة وأكثروا من المحظيات لدرجة أنّ حكّام الكنيسة أصدروا رخصـــة رسميـــة لإقامة المحظيات عند الأساقفة، وجعلوا لها رسوما مالية كانت تسمّى: "كـــالاجيوم"، واســـتمر العمل بهذه الطّريقة قرونا.

وكان لمحظية الأسقف احترام في الحفلات والاجتماعات الشّعبية يُضاهي احترام الزّوجـــة، وأصدر البابا الإسكندر الثّالث قوانين صارمة تمنع الزّواج، ولكنه رغم ذلك أمر ممثليه ألاّ يتعرّضوا لوجود محظية أو محظيتين لدى الأسقف حتى تسلم نساء منطقته من يديه. ولكن كل هذه الوسائل أخفقت في منع التّعدي على النّساء[2]. أمّا مسألة الاستحالة فالأساس فيها ما علمـــت في شـــرح الشّعائر النّصرانية، من أنّ المسيحيين يأكلون يوم الفصح خبزا ويشربون خمرا، ويســـمّون ذلـــك "العشاء الرّباني"، ولقد زعمت الكنيسة أنّ ذلك الخبز يستحيل إلى جسد المسيح ، وذلك الخمـــر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك، فمن أكلهما وقد استحالا هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح في جسده بلحمه ودمه، وذلك أمر غريب في العقل، لا يستطيع أحد بيسر وسهولة، بل لا يستطيع

[1] – أحمد شلبي،المسيحية،مرجع سابق،ص 256.

[2] – ساجد مير،المسيحية،دط،دار السّلام للنّشر والتّوزيع،الرّياض،السّعودية،دت،ص331–332.

أن يستسيغه قط، إذ كيف يتحول الخبز لحما، وكيف يصير لحم شخص معيّن معروف، وكيف تتحول الخمر دما وتصير دم شخص معيّن معروف؟، ذالك غريب بل مستحيل التّصوّر والقبول في العقل، ولكن الكنيسة فرضت على النّاس قبوله ومنعتهم من مناقشته، وإلاّ عرضوا للطّرد والحرمان. وهل ورد هذا الأمر في الكتب المقدّسة حتى يجب الأخذ به من غير تفسير أو تأويل؟، إنّه أمر استقلت به الكنيسة وأعلنته وأبدته في أحد مجامعها، غير معتمدة في ذلك على نص صريح من الكتب المقدسة عندهم[1].

بالإضافة إلى مسألتي الغفران والاستحالة؛ وهما من أهم المسائل في المسيحية، هناك مسألة أخرى وهي مسألة "الحرمان"، وهي قرارات يُصدرها رجال الدّين ضد مخالفيهم، ومن الأمثلة على ذلك إصدار البابا "جريجوري السابع" "Gregery V II" (1073م – 1085م) قرار الحرمان الكنسي؛ ضد الملك الألماني "هنري الرّابع" " Henry IV" (1056م – 1106م) [2] في رسالة أشاح فيها بوجهه عن الملك المحروم، ورفعها مباشرة إلى بطرس أمير الرّسل، وقال بالحرف الواحد: "بمقتضى السّلطة المخوّلة لك من اللّه، بحق الرّبط والحل في السّماء وعلى الأرض، وباعتباري ممثلا لك...، أجرّد هنري الملك الإمبراطور من سيادته على مملكة الألمان، والأراضي الإيطالية، وأحلّ رعيته المسيحية من كل إيمان الولاء التي قدّموها، أو سوف يقدّمونها له، و أحرّم على أي إنسان أن يقوم بخدمته كملك. وبسلطانك أوثقه بوثاق اللّعنة، وما ذلك إلاّ ليعلم الجميع ويوقنوا؛ أنّك بطرس، وعلى صخرتك بنى اللّه الحيّ كنيسته، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها"[3]. وهكذا غدا البابا رأس الكنيسة، السّاهر على حماية قوانينها ونظمها، إنّه في نظر المسيحيين نائب المسيح وخليفة القديس بطرس زعيم الحواريين ومقدم الرّسل الذي اتّخذ منه المسيح صخرة بنى عليها كنيسته، و لم يكن البابا مجرد صاحب وظيفة وإنّما كان يمثّل القوّة الموجهة للعالم المسيحي، ومن هذا المنطلق أخذت البابوية تنشر نفوذها وتبسط سيادتها على أسس

---

[1]- محمّد أبو زهرة، محاضرات في النّصرانية ،مرجع سابق، ص 156.

[2]- ملك ألمانيا ورأس الإمبراطورية الرّومانية المقدسة (1056م – 1106م)، ابن الإمبراطور هنري الثّالث، تعيّن عليه أن يتصدى لعدد من ثورات النبلاء. نشب صراع بينه وبين البابا غريغوريوس السّابع حول من يُعيّن كبار الأساقفة: البابا أم الملك، وقد أسفر هذا الصّراع عن هزيمة هنري وإعلانه خضوعه للبابا في كانوسا (Canossa) عام 1077. راجع: (موسوعة أعلام المورد، مرجع سابق، ص478).

[3]- رأفت عبد المجيد،الدّولة والكنيسة،مرجع سابق،ص 13 .

إقطاعية راسخة، وجاء سقوط الإمبراطورية الغربية في القرن الخامس للميلاد، ليجعل من البابوية القوة الوحيدة والزّعامة العليا التي يمكنها حماية التّراث الرّوماني.

وفي وسط هذه الأجواء برزت المكانة العليا لبابا روما وشملت الكيان السّياسي فضلا عن الكيان الدّيني، على أنّ السّلطة السّياسية في غرب أوربا ممثلة في الأباطرة والملوك لم تخضع في سهولة للسّلطة الدّينية وعلى رأسها البابا، ممّا أدى إلى تناطح بين السّلطتين: أيّهما يسبق الآخر وأيّهما يتقدم الآخر في زعامة العالم الغربي، البابا أم الإمبراطور، وانتهى الأمر بصراع طويل بين البابوية والإمبراطورية استمر عدّة أجيال، إلى ما بعد القرن الثّامن عشر للميلاد.

كانت الكنيسة في غرب أوربا هيئة دينية سياسية، يتربع على رأسها البابا بوصفه نائب المسيح، ويتعامل مع ملوك أوربا وأمرائها على أنّهم أبناء الكنيسة وهو أبوها، وهكذا نجد الحكومة البابوية في أواخر القرن الثّاني عشر وقد امتلكت سلطات دينية ودنيوية لا حدود لها، بحيث لم يعد البابا مجرد زعيم هيئة مستقلّة من رجال الكهنوت، وإنّما اعتبر نفسه رأس العالم المسيحي بأجمع، وكلمته مسموعة في أركان الكيان الاجتماعي والسّياسي والفكري والاقتصادي في غرب أوربا[1].

ولقد وعاش رجال الدّين حياة خليعة مستهترة أنانية،كل اهتمامهم محصور في المحافظة على سلطتهم وحقوقهم وامتيازاتهم الاجتماعية والمادية...، بل كان منهم من يسعى ليحتل أكثر من وظيفة لينال إيرادات أكبر، ويعيّن أناسا أشرارا ليقوموا بعمله، وهكذا فسدت الأخلاق، وعمّت الرّذيلة، والسكر والعربدة، وابتدأ النّاس يحتقرون الكهنة ويكرهونهم. ومع ذلك كانوا يخافونهم؛ لأنّهم تحت سلطتهم، ومن يقرأ الأدب المعاصر لتلك الحقبة (العصور الوسطى) يشعر بالنقد اللاّذع والهجوم الشّديد على مخازي الكنيسة والأساقفة والرّهبان في الأديرة[2].

[1] – سعيد عبد الفتاح عاشور،حضارة أوربا في العصور الوسطى،دط،دار الفكر العربي،القاهرة،مصر، 2006 م،ص4–6.

[2] – القس فايز فارس،أضواء على الإصلاح الإنجيلي،دط،مطبعة القاهرة الحديثة،القاهرة،مصر،دت،ص11.

ونختم حديثنا بمقولة "لجون لوك"[1] في كتابه "رسالة في التّسامح"؛ بحيث ينقد فيها رجال الدين وسلطة الكنيسة إذ يقول: «...آه لو أنّ وعاظ الكنائس في كل ملّة قد شحذوا أنفسهم بقوة الحجة التي تمكّنهم من محاربة الأخطاء المتعارضة مع معتقداتهم!، ولكن عليهم أن لا يمسّوا الأشخاص، وألاّ يُعوّضوا نقص الحجج باللّجوء إلى وسائل القوّة التي هي من اختصاص سلطة أخرى. ولا يليق بالكاهن أن توضع في يده هذه السّلطة، وعليهم ألاّ يستدعوا سلطة الحاكم لمساندة بلاغتهم اللّغوية أو علمهم الذي تعلموه، خشية ألاّ تستنشق حميتهم الفظة سوى النّار والسّيف، فتفضي إلى فضح طموحهم وتدل على أنّ ما يشتهونه هو مجرد السّيطرة، وهذا على ضد ما يزعمون من أنّهم عشاق الحقيقة ليس إلاّ»[2].

هذا هو إذن سلطان الكنيسة، وتلك حال رجالها، يتدخلون في كل شيء ويفرضون سلطانهم على الرّاعي والرّعية، ويُرهقون من يتّهمونهم بأقسى أنواع العذاب، لكن كما يُقال دوام الحال من المحال؛ فهذا الوضع لم يبق على حاله، بل ظهر العديد من المناهضين والرّافضين لهذه السّلطة، وحاولوا إصلاحها على اعتبارها (سلطة رجال الدّين) لم تستمد شرعيتها من السماء (اللّه)، وسنأجل الحديث عن نقد الكنيسة وإصلاحها في المبحث الثّالث إنشاء اللّه.

---

[1]- فيلسوف إنجليزي (1632 م-1704م). أثّرت كتاباته في علم السّياسة والفلسفة، ولد بمقاطعة "سومرست" بإنجلترا، ودرس بجامعة أكسفورد، ومن أكبر أعماله مقال عن الفهم الإنساني الذي يشرح فيه نظريته حول الوظائف التي يؤديها العقل (الذهن) عند التّعرف على العالم، وقد ظل "لوك"حتى وفاته يكتب بقدرٍ كبير من الحرية في موضوعات مثل الإصلاح التّعليمي، وحرية الصحافة، والتّسامح الديني. راجع (الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق،ج21، ص 206).

[2]- جون لوك،رسالة في التّسامح،ترجمة منى أبو سنة،تقديم مراد وهبة،ط1،المجلس الأعلى للثقافة،دب، 1979م،ص38.

المطلب الثّاني: موقف المسيحيين من العلم التّجريبي

من الأمور المسلّم بها أنّه إذا حُرّف الدّين وبُدّل، وأدخلت فيه أفكار البشر، فإنّه عرضة للتّعارض والتّناقض مع الحقائق العقلية والعلمية. ولأجل ذلك فإنّ الكنيسة -وهي التي تمثل الدّين المتعارض مع العلم- لم تكن موجودة زمن عيسى عليه السلام، بحيث يقول"شارل جنيْبير"إنّ المسيح لم ينشئ الكنيسة، ولم يردها، ولعل هذه القضية أكثر الأمور المحققة ثبوتا لدى أي باحث يدرس النّصوص الإنجيلية في غير ما تحيّز، بل إنّنا نؤكدُ أيضا أنّ الفرض العكسي، لا يمكنُ أن يوجد له سند تاريخيّ مقبول[1].

بل إنّ الحواريين لم يفكروا في إنشاء الكنيسة. إذن متى وجدت الكنيسة؟ يرى "شارل " أنّه يمكن اعتبار القرن الثّاني هو بداية التّجمع والنّجاح لدعوة "بولس"بعالمية الكنيسة وأصبحت مع بداية القرن الرّابع بمثابة الهيكل الضخم الذي يشكل وحدة متكاملة ومجتمعا مغايرا عن صورة مجتمع الحواريين.ومع مُضيّ الزمن أصبح البابا بمثابة الحاكم الأعلى، والملك المقدّس، بل ادّعى لنفسه حقّ السّيادة على العالم كلّه، وما إن جاءت القرون الوسطى،حتى أصبحت الكنيسة بمثابة الدّولة، فلها محاكمها الخاصة، وسجونها العديدة، وتتدخل في كل شيء، سواء في السّياسة أو الاقتصاد، أو العلم.

وكون الحديث هنا عن الصّدام بين الدّين الكنسي والعلم، فإنّ الكنيسة رأت أنّ مصدر العلوم وأنواع المعارف لا يكون إلاّ عن طريقها، وأنّ من خالف رأيها وأفكارها يعدّ مخالفا للدّين، ومن ثمّ يكون صاحب ذلك الرّأي المخالف مطرودا من الرّحمة، ومحكوما عليه بالإلحاد، فكان لا بد من وقوع الصّراع، ويظهر ذلك جلياً في موقف الكنيسة من العلماء ونظرياتهم.

بحيث كبحت الكنيسة العقول وقيدتها، وفرضت الحصار على الأفكار ولجمتها، وردت النّظريات العلمية ورفضتها، لا خوفا على الدّين، بل حفاظا على قدسيتها، وخوفا من هتك أستارها على يد هذه النّظريات، فينهار بنيانها، ويزول طغيانها، فرفضت كل ما جاء عن غير طريقها، وخالف معارفها، واعتبرت أنّ قمة الضلال هو البحث عن الحقيقة في غير الكتاب المقدس والتّفكير والتّمحيص في أمور دنيوية.

[1]- شارل جنيبير،المسحية نشأتها وتطوّرها،ترجمة:عبد الحليم محمود،دط،منشورات المكتبة العصرية،بيروت،لبنان،دت،ص130.

ويقول "الأب لاكتانتيوس" "Lactantius" في هذا الشأن: «لو كان هناك احتمال للوصول إلى الحقيقة عن طريق البحث والدّراسة، لكنا قد توصلنا إليها من زمن بعيد، وبما أنّه لم يُتوصل إليها، برغم ما ضاع في سبيل ذلك من وقت وجهد؛ فمن الواضح الجليّ إذن أنّ الحكمة والحقيقة لا وجود لهما». ويَعتبر "لاكتانتيوس" استخدام العقل للبحث في الطّبيعة وعجائبها، بدلا من الاهتمام بتعاليم الدّيانة الجديدة وأبحاثها، إساءة إلى استخدام القوى التي منحنا إياها اللّه[1].

ويبرز طغيان الكنيسة (رجال الدّين) وتسلطها على الجانب العلمي في رد الآراء العلمية، والحكم على أصحابها بالكفر والإلحاد والهرطقة، ومن ثمّ إحراقهم أو قتلهم، وقبل الحديث عن هذا كله يجدر بنا الإشارة إلى بعض الأسباب التي دفعت بالكنيسة لمحاربة العلم ومعاداته وهي كالآتي:

- **أولا**: أنّ الكتاب المقدس عندهم جاء بما يخالفُ هذه النّظريات، ويتعارض مع كثير من الكشوف العلمية، ومن ثمّ فهي متناقضة مع معتقدهم الدّيني، فلا بد من ردها.
- **ثانيا**: أنّ العهد القديم ورد فيه ما يدل على أن الأرض ثابتة، ونص عبارته "جيل يمضي وجيل يأتي، والأرض قائمة أبد الدّهور الشمس تشرق والشمس تغرب، ثمّ تسرع إلى مكانها ومنه تطلع" فالقول بدورانها يناقض هذا النّص.
- **ثالثا**: أنّ القول بدورانها يبطل العديد من معتقدات الكنيسة التي بُنيت على القول بثباتها، حيث قالت الكنيسة: إنّ الأرض يجب أن تكون مركز الكون الثّابت؛ لأنّ عيسى عليه السلام تجسد فيها، وعليها تمت عملية الخلاص والفداء، وفوقها يتناول العشاء الرّباني.
- **رابعا**: تعتقد الكنيسة أنّها بموقفها هذا، تحقق جملة من المطالب العامة والخاصة، ومن ذلك المحافظةُ على قدسية الإنجيل، وحق إنفراد الرهبان بمعرفته وتفسيره، كما تهدف إلى الحفاظ على مكانة رجالها، وتحقيق مصالحهم.

[1] - زيغريد هونكه،شمس العرب تسطع على الغرب،ترجمة:فاروق بيْضُون وكمال دسُوقي،مراجعة،مارون عيسى الخوري،ط8،دار الجيل بيروت لبنان، 1993م،ص361.

- **خامسا:** عدم ثقة رجال الدين الكنسي في معتقداتهم، ولهذا خافوا من انتشار هذه النّظريات والكشوف العلمية؛ لأنّها ستأتي على بنيانهم، وتكشف أباطيلهم، وتظهر تناقضاتهم، فكان هذا الصّراع مع العلم والعلماء.
- **سادسا:** الجهل الذي كان يخيّم على رجال الدّين، ممّا جعلهم يخافون من كل جديد، مع أن بعض النظريات لم تكن تضرهم بشيء.
- **سابعا:** اعتقاد الكنيسة أن الحقّ والصّواب إنّما يكون في الكتاب المقدس دون سواه، فهو المعصوم عن الخطأ.
- **ثامنا:** أنّ الكنيسة علمت أثر العلوم الإسلامية على أوروبا، فخافت من انتشار الإسلام وثقة النّاس به، والدخول فيه، ومن ثمّ الكفر بالكنيسة ودينها، وأثر علماء المسلمين على الغرب حقيقة لا مرية فيها، بل كشف بعض الباحثين الأوروبيين أن هناك سرقات تمت من علوم العرب، وتُرجمت إلى اللاّتينية دون الإشارة لذلك[1]. وقد تطرقنا لهذا الموضوع بشيء من التّفصيل في الفصل الثّالث من هذه المذكرة.

بعد هذا العرض السريع لأسباب عداء الكنيسة للعلم، ننتقل الآن للحديث عن صور هذا العداء، وما هي الآثار المترتبة عنه.

لقد اشتد ضغط الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين، وبالغت في فرض آرائها عليهم مبالغة تجاوزت حد الغلو، و لم تسلك في سبيل ذلك الموعظة الحسنة والدعوة الصّالحة والإرشاد القويم، ومخاطبة الأرواح والنّفوس، وتمكينها من أن تتبعها، وهي حرّة مريدة مختارة، بل سلكت سبيل العنف وركبت متن الشّدة، فجعلت كل رأي في العلوم يخالف رأيها كفرا، ولا تدعو معتنقيه إلى الهداية، وترشيده إلى الرّشاد، كما يليق برجال الدّين مع من يرونه ضالا، بل تكفّر لأوهى الأسباب، وتحرّق وتعذّب من تراه كافرا بلا رفق ولا هوادة[2].

فقد كانت الكنيسة في بداية العصور الوسطى قد سيطرت بقبضة خانقة على أنماط الحياة الثّقافية، ومنعت أيّ نمو لروح البحث العلمي، إذ كان التّعليم مقتصرا على رجال الدّين، والغالبة العظمى من النّصارى يقتفون آثار جهلهم (رجال الدّين) دون بصيرة، فضلا عن أنّ القوة

[1] – عبد اللّه آل سرور الغامدي،الصّراع بين الكنيسة والعلم أسبابه وآثاراه،دط،دب،دت،ص 365–367.

[2] – محمّد أبو زهرة،محاضرات في النّصرانية، مرجع سابق،ص153.

المطلقة التي منحـــت للبابوية لم تسمح لأيّ تقدم فكري بين رجال الدّين أنفسهـــم، حتى أنّ أيّ فكر جديد أو سؤال حول عقيدة الكنيسة، يوصـــف بالهرطقة ويخمد كأيّ تقدّم آخر في حقول المعرفة والثّقافة[1].

فقد قام الإمبراطور "فردريك الثّاني" بإصدار مرسوم ينصّ على أنّ الهرطقة يجب أن تكون عقوبتـــها الموت أو قطع اللّسان، والاختيار متروك للقاضـــي، وقد راقت هذه الفكرة رجـــال الكنيسة، وتبعتها تشريعات مماثلة اجتاحت أوربا. ففـــي عام 1231م نص الدّستور الصّـــقلي على ضرورة حرق الهراطقة، وانتهت بذلك إلى ما كان سائدا بالفعل في ألمانيـــا وفي فينيسيا، تمّ تعديل القسم الـــدّوقـــي، فكل من يتمّ ترقيته إلى درجة "دوج" (قاضي أول في جمهوريتي جنوا والبندقية) منذ عام 1240م، عليه أن يقسم بحرق كافة الهراطقة؛ وفي عام 1270م نص القانون الفرنسي على جعل عقوبة الهراطقة إجبارية بالحرق أحياء، على الرّغم من ممارسة هذه العقوبة قبل تقنينها.

وفي إنجلترا تمّ اعتماد هذا القانون عام 1401م، فقد كان من المتبع حتى ذلـــك التّـــاريخ الاكتفاء بكي وجه الهراطقة بالحديد المحمي[2]. فانتهجت بذلك الكنيسة سياسة صارمة ضد كـــل من يخالفها، ومن بين الأمور التي قامت بها فرض الرّقابة على المطبوعات، فقد حتّم علـــى كـــل مؤلف وكل طابع أن يعرض مؤلفه أو ما يريد طبعـــه على القسيس أو المجلـــس الـــذي عـــيّن للمراقبة، وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئا لم يُعرض على المراقب أو ينشـــر شيئا لم يأذن المراقب بنشره، وأوعز إلى هذا المراقب أن يدقق النّظر، حتى لا ينتشر ما فيه شـــيء يومئ إلى مخالفة العقيدة الكاثوليكية. ووضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة.

كذلك قاومت الكنيسة الحقن تحت الجلد، وقد اكتشفت هذه الطّريقة الطّبية عند المسلمين في الأستانة، ثمّ نقلتها إلى أوربا امرأة تسمى "ماري مونتاجو" سنة 1721 م، فقامـــت قيامـــة القسوس وعارضوا استعمالها واحتيج في تعضيدها إلى التماس المساعدة من ملك إنجلترا، وعادت هذه الشّدة في المعارضة عندما اكتشفت طريقة تطعيم الجذري. كذلك قاومت الكنيسة تســـهيل

---

[1] – ماري ويلدز، رحلتي من الكنيسة إلى المسجد لماذا...؟ ،تقديم: محمّد عزّت الطّهطاوي، دط، دب، 1990م، ص22.

[2] – زينب عبد العزيز، الإلحاد وأسبابه، ط1، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، 2004 م، ص78 – 79.

الولادة، فقد رأى فيه القسوس تخليص المرأة من تلك اللّعنة أو تلك العقوبة التي سجلت عليها في سفر التّكوين [1].

ومن الأمور التي قامت بها الكنيسة أيضا إحراق الكتب، فقد برزت في العصر المظلم بالنّسبة إلى الفكر الإنساني الحرّ عدّة مؤلفات اعتبرت خطيرة من قبل الكنيسة، وقد كان من الطّبيعي في هذه الحالة أن تمنع الكنيسة هذه المؤلفات، و أن تلاحق دون رحمة مؤلفيها ، وقد أصبحت ملاحقة المؤلفات والمؤلفين بشكل خاص تتمّ عند أبسط انحراف عن التّعاليم الرّسمية للكنيسة.

وفي بداية ومنتصف العصر الوسيط كان الأمر غالبا ما يتعلق بالمؤلفات المنسوبة إلى القدّيسين والمؤلفات الهرطقية، ثمّ المؤلفات التي تتضمّن الخرافات وغيرها. وهكذا فقد بقيت لنا معطيات كثيرة تتحدث عن منع مؤلفات مختلف الكتّاب، كما حدث للكاتب اللاّهوتي "برينيفار" سنة 1050م و"أبيلارد" سنة 1120م و "وايفان سكوت إيوغنا" سنة 1225م و "جون ويكلف" سنة 1387م، وللكثير من الهراطقة وغيرهم من الذين حاسبتهم الكنيسة بكل صراحة.

وقد كانت كتب هؤلاء الذين يعتبرون خطرين ك "ويكلف"، تدان بالحرق وتمنع قراءتها تحت التّهديد بالحرمان. ومن ناحية أخرى فقد صدرت خلال العصر الوسيط سلسلة من القرارات التي تمنع ترجمات الكتاب المقدس إلى اللّغات الشّعبية. وفي بعض الحالات كانت قرارات المنع تشمل امتلاك هذه التّرجمات؛ لكي لا يفسر النّاس كما يريدون الكتاب المقدس. وقد تكاثرت قرارات المنع في فرنسا بشكل خاص منذ القرن الثّالث عشر الميلادي.

وهكذا نجد مثلا المجلس الكنسي في طولون قد أصدر سنة 1299م قرار يمنع فيه أفراد الشّعب من امتلاك نصوص العهد القديم والعهد الجديد، وقد صدرت لاحقا قرارات منع مشابهة في إنجلترا وإسبانيا وغيرها من البلدان الأوروبية[2].

ومن العلوم التي أدانتها الكنيسة ولعنتها علم الفلك، وكانت النّظرة إليه عموما أنّه دراسة عقيمة ولا يرتجى منها نفع. إذ ما عسى أن تكون فائدة علم يدرس نظام كوني ناقص سرعان ما يحل محله نظام أفضل منه و أنفع؟. ولعل القديس أوغسطين قد عبّر عن هذا الرّأي خير تعبير عندما رأى بأنّه سواء كانت الأرض مركز السّماء أو كانت في هذا الجانب من السّماء أو ذاك، فإنّ ذلك لا يضير ولا يجدي نفعا.

---

[1] – محمّد عبده،الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية،ط2،دار الحداثة،القاهرة،مصر،1988م،ص44 – 45.

[2] – إكسندر ستيبتشفيتش،تاريخ الكتاب،ترجمة:محمّد الأرناؤوط، دط،عالم المعرفة،دب، 1993م،ص 187 – 189.

وكانت نظرة رجال الدّين إلى أجرام السّماء ونجومها نظـــرة التّقيّ الذي ما أن يفكـــر في أجسام الفلك حتى تراه يسبح بحمد اللّه ويشكره على حسن صنيعه . ناهيك بعـــد هـــذا عـــن اختلاف نظرة هؤلاء الرّجال حول طبيعة الأجسام السّماوية، فمنهم من قطع بأنّ تلك الأجسام إنّما هـــي كائنات حيّة، ولكل منهـــا روح خاصـــة به. بينمـــا قال آخـــرون بأنّها مـــوطن الملائكة وبيوت سكانها، وذهبت طائفة أخرى إلى أنّ النّجوم كائنات روحية تسيّرها الملائكـــة كيف تشاء وأنّها – أي النّجوم – لا سلطان لها على مجرى الأحداث في الأرض، وإنّما حســـبها أن تشير إليها وتدل على زمن حدوثها.

وكانت تعاليم الدّيـــن عندهم تقول بأنّ السّماء فيه صلبة تحيط بـــالأرض وأنّ الأجســـام السّماوية مصابيح معلّقة في السّماء. هكذا إذن نرى أنّ تركيب الكون على هذا النّحو كان مزيجا من بعض التّعاليم الدّينية التي عمد رجال الكنيسة علـــى دمجهـــا بنظريات "بطليموس" الفلكية، فكان النّتاج عبارة عن جملة من آراء حول الكون لم يسمح الآبـــاء المســـيحيون بمناقشـــتها أو التّشكك في صحتها[1].

ومن الجرائم البشعة التي اقترفتها الكنيسة، قتل العلماء ومن ذلك قتلها عالمة الرّياضـــيات "هيباثيا" ابنة نيون السّكندري، مدير مكتبة الإسكندرية، آخر أكبر عالمة رياضيات وفلســـفة في مدرسة الإسكندرية.

وقد قتلهـــا شرذمـــة من الرّهبان المسيحيين بنـــاء علـــى توجيهات "ســـيريل" أســـقف الإسكندريـــة، والذي ستقوم الكنيسة فيما بعد بجعله قديسا. وبعد إعدامها بلا محاكمة ، قـــام الجناة بسحب جثتها داخل الكاثـــدرائيـــة وتولى الرّهبان تقطيع جسدها بناء على أوامر الأسقف سيريل، وكانت حجة المسحيين في النّيل منها أنّها كانت مدرسة رياضيات بارعة، وتمثل تهديـــدا ضد انتشار المسيحية بسبب تعليمها العلوم وفلسفة الأفلاطونية الجديدة. ويمثل مقتلها نقطة تحول كـــبرى؛ إذ غادر العديد من العلماء مدينة الإسكندرية متجهين إلى الهنـــد وفـــارس، و لم تعـــد الإسكندرية تمثل مركز الإشعاع العلمي في العصر القديم [2].

في حديثنـــا عن اضطهاد الكنيسة للمخالفين لا يفوتنا الحديث عـــن محـــاكم التّفتـــيش ووحشيتها. إذ تعتبر هذه المحكمة عبارة عن سجون مظلمة تحت الأرض بها غرف خاصة للتّعذيب

[1] – عبد اللّه العمر،ظاهرة العلم الحديث،دط،عالم المعرفة،دب، 1983م،ص28.

[2] – زينب عبد العزيز،الإلحاد وأسبابه،مرجع سابق، ص69.

وآلات لتكسير العظام وسحق الجسم البشري، وكان الزبانية يبدأون بسحق عظام الأرجل ثمّ عظام الصّدر والرّأس واليدين تدريجيا حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة والدّماء الممزوجة باللّحم المفروم، وكان لدى المحكمة آلات تعذيبية منها آلة على شكل تابوت تثبّت فيه سكاكين حادة، يلقون الضّحية في التّابوت ثمّ يطبقون عليه فيتمزّق جسمه إربا إربا، وآلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثمّ تشد فتقصه قطعة قطعة، وصور أخرى تتقزز منها النّفوس وتشمئز لذكرها[1].

وإذا كان رجال التّفتيش يضطهدون العلماء ويذيقونهم مرّ العذاب، ويحرقون كتبهم، ويكسرون أدواتهم ويحطمون بقاياهم، ويضيّقون على المفكرين ويزجون بهم السّجون، ويأمرون بحرقهم أحياء، لا لسبب جنوه إلاّ أنهم بحثوا في الفلك والحساب والطّب، أو أنّهم درسوا الفلسفة والآداب، أو قالوا برأي لا ينطبق وما رسخ في عقول رجال التّفتيش من الجهل والظلمات[2].

وقد قامت محاكم التّفتيش بأعمالها حق القيام، ففي مدة 18 سنة –1481– 1499م– حكمت على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصا بأن يحرقوا وهم أحياء، فأحرقوا. وعلى ستّة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التّشهير، فشهروا وشنقوا. وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنفذت. وأحرقت كذلك كل توراة بالعبرية.

وكانت وسائل التّحقيق عند هذه المحكمة "المقدسة" هي أن يحبس المتهم وتجرى عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التّعذيب المتنوعة إلى أن يعترف بما نسب إليه، وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التّنفيذ. واشتدت محكمة التّفتيش في طلب أولئك المجرمين (طلاب العلم والسّعاة إلى كسبه)، ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها: في المدن، البيوت، السّراديب الأنفاق، المخازن، المطابخ المغارات، الغابات، الحقول...، فوقت بما كلّفت مع البهجة والسّرور اللاّئقين بأصحاب الغيرة على الدّين [3].

وخلاصة ما يمكن قوله هو أنّ العداء الذي مارسته الكنيسة النّصرانية باسم الدّين، أثّر في الحياة الأوربية كثيراً، فأظهر النّاس عداءهم للدّين، وفقدوا الثّقة فيه بسبب اضطهادهم عن

---

[1]– سفر عبد الرّحمان الحوالي،العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة،دط،دار الهجرة،دب،دت،ص132.

[2]– علي مظهر،محاكم التّفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرها،دط،المكتبة العلمية،القاهرة،مصر، 1947م،ص 102.

[3]– محمد عبده، الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية،مرجع سابق،ص45–46.

طريقـــه، وصوّر رجال الكنيسة أن الدّين ينبذ العلم ويعاديه، في وقت كانت فيـــه النّظريـــات العلمية تنتشر وتزداد، ويراها النّاس أكثر صدقا وموافقة لما تبحث عنه نفوسهم، ولأجل ذلك وقع الصّراع والتّصادم بين الدّين الذي تدعو إليه الكنيسة، والعلم الذي يعتمد على الحس والتّجربة، ووصل الأمر إلى معركة لم يُر لها نظير من قبل، بل وصل إلى الاعتقاد بأنّ النّصرانية مؤامرة فظة، لم تنتج إلاّ الأكاذيب والجرائم عبر التّاريخ، وأن جميع البلايا التي يألمون منها ستختفي في اليـــوم الذي تختفي فيه النّصرانية، ويرون أن العقيدة ساذجة غير متعقلة، خصصت للأغبياء والجهـــلاء، وهي لا تنحصر في تصديق ما يبدو أنّه حق، بل ما يبدو أنه باطل أمام العقل.

لذلك قدّس الغربيون العقل، ووثقـــوا فيـــه وفي النّظريات العلمية أكثـــر مـــن وثوقهم في الكنيسة، ولو لم يكن من وراء ذلك عند بعضهم، إلاّ الرغبة في الهروب من تسلّطها وطغيانهـــا الذي فرضته على كافة المجالات، سواء كان الطغيان الرّوحـــي أو الطغيان السّياسي أو الطغيان المالي أو الطغيان العلمي، حيث لم تكتف الكنيسة بفرض سلطانها على أرواح النّاس وأجسادهم وأموالهم، واحتفاظها لنفسها بالأسرارِ التي لا تناقش، والعقيدة التي لا تفهم، بل تعـــدى الأمـــر حدوده، وفرضت سلطانها على العقول والأفكار خوفاً على بنائها من الانهيار.

المبحث الثّالث:عناية المسيحيين بالعلم التّجريبي

المطلب الأول: نقد الكنيسة

لقد بدأ العقل الأوروبي يفيق من سباته، ويصحو من غفلته، ليقاوم تلك السّلطة الكنسية ويحاول خرق تلك القيود التي فرضتها، وفتح الأبواب التي أوصدتها وتخطي العقبات التي وضعتها، وتجاوز المعوقات التي أحدثتها، محاولا بذلك الصّمود أمام أساليب القهر والوحشية. وأول خطوة في طريق تحرر العقل الأوروبي من سطوة الكنيسة وسيطرتها كانت تتمثل في شجاعة بعض المفكرين وجرأتهم في توجيه النّقد للبابوية أو لرجال الدّين المسيحي بوجه عام. أو أن يمسوا قدسية أو سلطان الكنيسة بسوء، أو على الأقل يظهروا استنكارهم لما تقوم به الكنيسة من أعمال وأنشطة[1]، وتكمن أسباب نقد الكنيسة في عدة أمور نذكر بعضها على النّحو الآتي:

1- تدهور المستويات الأخلاقية وتفشي حالات الفساد والانحطاط بين رجال الدّين المسيحي في العصور الوسطى، بحيث وصلت حالة البابوية في فترة من الفترات- وخاصة بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي- إلى أحط دركات الانحطاط، فتشوهت الصّورة وتلطّخت بالكثير من الأمور التي لم تكن تخطر على بال ...، فبعض الذين شغلوا ذلك المنصب من خلال تلك الفترة لم يكونوا فوق مستوى الشّبهات، بل إنّهم كانوا من ذوي السّمعة السّيئة، وارتكبوا أفضع أنواع الجرائم و أبشعها.

2- استغلال رجال الدّين لنفوذهم بفرض ضرائب على رعايا الكنيسة، وجمعهم الأموال بالطّرق غير المشروعة. هناك اتهامات كثيرة ضد البابوية – كما يقول جون لوريمر- لكن التّهمة الأكثر انتشارا كانت الاستغلال المالي. ضجّ النّاس بالشكوى من أعلى حاكم إلى أدنى قروي، بأنّ الكنيسة عاشت للمال، ومن داخل الكنيسة ضغط البابا على الأساقفة الذين عصروا الكهنة الذين بدورهم عصروا الشّعب إذ يقول هذا الصّدد" يبدوا أنّهم في كل يوم اخترعوا طرقا جديدة لتنمية دخول الكنيسة. فقد كان هناك محصّلون خصوصيون من قبل البابا سافروا إلى الأرياف، وكانوا يطالبون بعُشر دخل الكاهن، ويحصلون على كل حصيلة الكاهن عن السّنة الأولى من خدمته وبالطّبع كانت

[1]- أحمد علي عجيبة،أثر الكنيسة على الفكر الأوروبي،ط1،دار الآفاق العربية،القاهرة،مصر، 2004م،ص12.

المراكز والوظائف الكنسية لمن يدفع المبلغ الأكبر. والضرائب كانت تفرض سنويا على رؤساء الدّولة، وإذا سافر البابا أو احتفل بأحد الأعياد، حين إذن تفرض لذلك ضريبة إضافية. يقدرون أنّ الكنيسة في فرنسا وألمانيا استولتا على ما يتراوح بين ثلث إلى نصف كل أملاك الدّولة. في إنجلترا أتلفت الكنيسة وسرقت حوالي خمسة وعشرون بالمائة من الدّخل القومي[1]. في هذه الفترة من التّاريخ لم يعد النّاس يفكرون في الكنيسة على أنّها مؤسسة للخدمة أو الإلهام، لكن بالأحرى كملكية خاصة بكبار رجال "الإكليروس" وُجدت لتجلب لهم امتيازات ومكاسب اقتصادية.

3- يضاف إلى هذا أيضا طبيعة المعتقدات المسيحية ومخالفتها أو مناقضتها للعقل البشري كعقيدة التّثليث، وطبيعة المسيح والتّجسد والاستحالة وغيرها.

4- كان رجال الكنيسة يضيقون ذرعا بأي رأي مخالف لهم، وأيّ فكر مناقض لأفكارهم. إنّ بعض رجال الدّين واستبدادهم بالرّأي، وبغضهم لكل فكر مخالف، ومقتهم العلماء لاشك كان سببا من أسباب نقد الكنيسة[2]. وتبعا لهذه الأسباب فإنّ النّقد مرّ بأطوار عديدة بحيث ابتدأ الأمر بأن اقتصر النّقد المتداول في شأن الكنيسة على أمور أخلاقية ومادية ليس غير،فإنّ ثراء كبار رجال الدّين "الإكليروس" وترفهم، والضرائب البابوية الفادحة كانت رأس أسباب الشّكوى، ولم يتطوّر النّقد فيغدوا أكثر عمقا وأكثر تدميرا. إلاّ بعد حين من الزّمن، يوم أخذ يوجه سهامه إلى الحقيقة المركزية في تعاليم الكنيسة[3].

وقد استدعى نقد الكنيسة ظهور عدة حركات في أوروبا، تعارض الكنيسة وتظهر عيوبها ومساوئها وتنتقدها. ففي الفترة ما بين القرن الحادي عشر إلى القرن الرّابع عشر للميلادي؛ ظهرت أكثر من حركة مناهضة للكنيسة، حيث أعلنت هذه الحركة سخطها على الكنيسة، واحتجت على ما فرضته من قيود، ووجهت السّهام النّقدية إليها في محاولة لإصلاحها وإصلاح أحوال رجال الدّين القائمين عليها. وفيما يلي حديث عن بعض هذه الحركات ومن بينها: "الكاثاريون"، تعتبر هذه الحركة إحدى أقدم الفرق الدّاعية إلى تطهير الكنيسة في القرن الثّاني

---

[1]- جون لوريمر، تاريخ الكنيسة،ترجمة:عزرا مرجان،ط1 دار الثّقافة،القاهرة،مصر، 1990م،ج4،ص37.

[2]- أحمد علي عجيبة،أثر الكنيسة على الفكر الأوروبي،مرجع سابق،ص14 وما بعدها.

[3]- ه.ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية،ترجمة:عبد العزيز توفيق جاويد،ط3،لجنة التّأليف والنّشر،القاهرة،مصر، 1972م،مج3، ص975.

عشر الميلادي، كانوا يعرفون بالأيليجيين وهو اسم المنطقة التي كانوا يعيشون فيها، كذلك وجدوا في "كولون" بألمانيا وشمال إيطاليا وإسبانيا. كان قصدهم تطهير الكنيسة من تنعمها وفسادها وإعادتها إلى بساطتها الأصلية [1].

وكانت عقائد الكاثاريين تعود إلى العقائد المسيحية في بداية عهدها، وكان فيها جانبا من المذهب الأريوسي الذي كان في إيطاليا وجنوب فرنسا، بالإضافة إلى بعض الأفكار المانوية وغيرها من أفكار بلاد الشّرق الإسلامي والغرب المسيحي. وانقسمت فلسفة هؤلاء إلى الخير والشّر، فالخير هو اللّه والرّوح والسّماء، والشّر هو الشّيطان والمادة والعلم المادي. وجاء في أفكارهم أنّ الشّيطان هو الذي خلق العالم؛ لذلك المادة شرّا، والصّليب الذي صلب عليه المسيح على حدّ قولهم مصنوع من الخشب، والخشب من المادة لذلك أصبح شرّا.

ومن عقائد الكاثاريين أيضا رفضهم للعشاء الرّباني والقدّاس وتعظيم الأيقونات والتّثليث، ولا يؤمنون أنّ المسيح ولد من مريم العذراء، و أنّ المسيح ملاك وليس إله. ونادوا بإنكار الملكية الخاصة، ويفضّلون أن تقسّم الخيرات بالتّساوي بين النّاس، ونادوا بحب أعدائهم والاهتمام بالفقراء والمرضى، وأن يتمسكوا بالسّلام وعدم استعمال العنف؛ لأنّه ينافي الأخلاق الكريمة، ولو كان ضد معارضيهم. كما أنكروا أنّ الكنيسة تخصّ السّيد المسيح. وقالوا أنّ القديس بطرس لم يأت إلى مدينة روما و لم يؤسس فكرة البابوية، وأنّ الباباوات في روما ليسوا خلفاء للحواريين بل خلفاء للأباطرة، واستشهدوا بأنّ المسيح لم يكن له أملاكا وأموالا، أمّا كبار رجال الدّين فقد أصبحوا من الأثرياء. وزاد الكاثاريون في أفكارهم ونادوا بأنّ رجال الدّين ما هم إلاّ زنادقة وأنّهم من زمرة الشّياطين، وأنّ البابا هو المسيح الدّجال.[2]

قاومت الكنيسة هذه الجماعة مقاومة شديدة، ورأت في وجودها خطرا على كيانها؛ ولذلك أصدر البابا "إنوسنت الثّالث" عام1198م الأمر بقمع هذه الجماعة وشنّ حملات ضارية ضدهم، وكتب بعد شهرين من توليته إلى رئيس أساقفة "أوتشي" في "غسقونية" يقول: «إنّ قارب القديس بطرس الصّغير تتلقفه العواصف، وتتقاذفه أمواج البحر، ولكن أشدّ ما يحزنني يقض مضجعي...أن قامت في هذه الأيام فئة لم نر لها فيما مضى مثيلا في تحرّرها من جميع القيود، وفي شدّة أذاها؛ فقدت ارتكبت أخطاء لا يرتكبها إلاّ الشّيطان، وأخذت توقع نفوس السّذّج من

[1] - جون لوريمر، تاريخ الكنيسة،مرجع سابق، ج4، ص 42.

[2] - محمود سعيد عمران،حضارة أوربا في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص216 –217.

النّاس في حبائلها، وتفسد بخرافاتها وبدعها معاني الكتاب المقدس، وتحاول أن تهدّم وحدة الكنيسة الكاثوليكية. وإذا كان هذا الوباء قد أخذ ينتشر في "غسقونية "والأقاليم المجاورة لها، فإنّا ندعوكم أنتم والأساقفة زملائكم إلى مقاومته بكل ما أوتيتم من قوّة...وقد أصدرنا إليكم هذا الأمر القويّ النّافذ أن تقضوا على هذه الفئات الملحدة بكل ما تستطيعون من الوسائل، وأن تخرجوا من أسقفيتكم كل من أصابهم دنسها...وفي وسعكم إذا اضطررتم أن تجعلوا الأمراء والشّعب يقضون عليهم بحد السّيف»[1].

وقد بدأت الحملة الصّليبية ضد الكاثاريين عام 1209م، وقاوم سكان مدينة "لانجويدك" "Languedoc" رجال الحملة، فقد كانت الحملة حربا من الشّمال ضد الجنوب، ورأى أهل "لانجويدك" أنّ أهل الشّمال يريدون الاستيلاء على أراضيهم تحت ستار الحماس الدّيني، وكانت المقاومة عنيفة للغاية حتى عرض قواد الحملة على مدينة "بيزيير" "Beziers" تسليم الملحدين حقنا للدّماء. ولكن أهل المدينة رفضوا وأعلنوا المقاومة حتى الموت، لذلك هاجمت الحملة المدينة بكل عنف، ونجحوا في النّهاية في تسلّق أسوارها والاستيلاء عليها[2].

وانتهت حركة الكاثاريين في الواقع بمذبحة ففي مدينة بيزيير قتل بحد السّيف أكثر من 8000 من الرّجال والنّساء والأطفال[3]. وقد صوّر "ولز" هذه الحملات بتصوير قريب ممّا سبق، لكنه يؤكد على صحة ما حدث تأكيدا لا شك فيه فيقول: «ومن ثمّ نرى مشهدا يبدو فيه إنوسنت الثّالث وهو يحرّض على حرب صليبية ضد هاته الشّيع، ويأذن لكل نذل زنيم أو متشرّد أثيم بأن ينضم إلى الجيش، وأن يعمل السّيف والنّار، واغتصاب الحرائر، ويرتكب كل ما يمكن أن يتصوّره العقل من أنواع انتهاك الحرمات... والقصص التي تروى عن هذه الحرب الصّليبية تحكي لنا أضرب القساوة والنّكال البشع ما يتضاءل إزاء بشاعة قصة أي قتل للمسيحيين على أيدي غيرهم، وهي فوق هذا تسبب لنا رعبا مضاعفا لما هي عليه من صحة لا سبيل إلى الشّك فيها»[4].

أمّا الولدانيون فمن الحركات التي جاهرت بنقد الكنيسة، وعارضت آراءها وأظهرت السّخط على رجال الدّين، ونددت بفسادهم ومساوئهم، مؤسس هذه الحركة

---

[1]- أحمد علي عجيبة،أثر الكنيسة على الفكر الأوروبي،مرجع سابق، ص 23 – 24.

[2]- محمود سعيد عمران،حضارة أوربا في العصور الوسطى، مرجع سابق،ص318.

[3]- جون لوريمر،تاريخ الكنيسة، مرجع سابق،ج4،ص42.

[4]- ولز، معالم تاريخ الإنسانية،مرجع سابق،مج3،ص 904– 905.

"بطرس والدو" المتوفي سنة 1217م، وكان تاجرا من ليون في فرنسا[1]. لم يكن يقل عن الآخرين مضايقة للكنيسة؛ لأنه كان ينعى على رجال الدّين ثراءهم وترفهم[2]. واصطبغت هذه الحركة تدريجيا صبغة معادية لرجال الدّين، ونبذتهم جميعا، وأنكرت صحة العشاء الرّباني الذي يقدمه قس آثم وعارض بعض الأعضاء صكوك الغفران وعقيدة المطهر. وقد نال "بطرس والدو" ما نال سابقيه من الاضطهاد والتّعذيب، وصدر في عام 1148م قرار بحل هذه الجماعة، قبل "أنوسنت الثّالث" في الكنيسة عام1206 فئة منها، بمعنى أنّه عفى عنهم وقبلهم أعضاء في الكنيسة بعد أن رجعوا عن أفكارهم وتابوا عنها، أمّا كثرتها الغالبة فقد أصرّت على آرائها الخارجة عن الدين المسيحي، وانتشرت من فرنسا إلى إسبانيا وألمانيا. قاومت الكنيسة هذه الحركة وأحرقت آلاف الأشخاص من أتباعها[3].

ومن الذين ثاروا ضد الكنيسة أيضا "جون ويكلف" الذي دخل جامعة أكسفورد، وسرعان ما اكتشفت قدراته العلمية وعيّن أستاذا وطلب إليه في وقت لاحق أن يكون مستشارا لاهوتيا للملك في إحدى خصوماته مع البابوية، لكنه جلب على نفسه نظرة عدائية من الكنيسة لما بدأ يحقق في حيات التّرف التي يحياها "الإكليروس" وتورطهم في الشؤون السّياسية، ربما دون قصد أثار ويكلف قضية سياسية. كان ذلك في فترة بابوية " أفينو " المشهور بالثّراء وسياسة فرض الضّرائب الفاحشة.

كانت إنجلترا في ذلك الوقت ثائرة والملوك النّبلاء حاسدين وطامعين في ممتلكات الكنيسة. وهكذا فإنّ ويكلف أثناء إغضابه البابا ربح حظوة الحكومة. دعي سنة1377م ليمثل أمام مطران لندن لكن النّبلاء وفروا له الحماية. أصدر البابا الأوامر للقبض عليه لمحاكمته، لكن الأوامر لم تسفر عن نتيجة بسبب أصدقائه في البلاط الملكي، عندئذ ذهب ويكلف أبعد من ذلك في مهاجمة البابوية هجوما مباشرا، حيث قال أنّ الكنيسة ليست متمركزة في البابا والكرادلة، لكن في شركة المختارين يكون المسيح بالتّأكيد رأسها الوحيد، وليس للبابا قوة في الربط والحل أكثر من أي كاهن، وإنّها عندي مسألة إيمان بأنّه لا يجب على أيّ إنسان أن يتبع البابا أو حتى أحد القديسين في السّماء إلاّ عندما يقتدون بالمسيح. بهذه الآراء اشتدت المعارضة البابوية ضد

---

[1]- ولز، معالم تاريخ الإنسانية،مرجع سابق،مج3،نفس الصفحة.

[2]- جون لوريمر،تاريخ الكنيسة،مرجع سابق،ج4،ص43.

[3]- ول ديورانت،قصة الحضارة،مرجع سابق،مج4،ص76– 77.

ويكليـــف، ففي سنة 1382م أدان كبير أساقفة "كانتربوري" أربع وعشرين فكرة "لويكليف"، ومنعه من إلقاء المحاضـــرات في جامعـــة أكسفورد. لكن بسبب حماية أصـــدقائه لم يســـتطيعوا مهاجمته شخصيا. مات سنة 1384م وهو مازال يخدم في كنيسة إحدى القرى[1].

ومن الذين تأثروا بـ "ويكليف" "يوحنا هوس" الذي تعلم في جامعة "براج" وبعد حصـــوله على درجتي الباكالوريوس والماجستير رسّم للكهنوت سنة 1401م واستمر أستاذا في الجامعـــة. وقد كان "هس"وقتئذ يكرز في إحدى الكنائس الكبرى في" بـــراج "جاذبـــا إليـــه انتبـــاه جمهـــور غفـــير. وكـــان له عداء في الكنيسة والجامعة[2].

وتكمن الثّورة الدّينية التي نادى بها "هس"، في أنّ الكنيسة ليس لها سلطان في محو الذّنوب وأنّ التّوبة مع رحمة اللّه فقط هي الطّريق الطّبيعي لمحو الآثام وتطهير النّفوس من الخطايا والأدران وأنّ ما يسمى بسرّ الاعتراف خرافة. ولكن الكنيسة رأت أنّ ذلك هدم لكيانها وجبروتها، فانعقد لذلك مجمع "كونستانس" مدة أربعة أعوام؛ للنّظر في ثورة "يوحنا هوس"، وقرر المجمع قتل العالم الثّائر حرقا بالنّار لما يقول من هرطقة، وسرعان ما نفذت السّلطات في الدّولة قرار الكنيسة وقتل الرّجل بأبشع قتلة [3].

وعليه فهذه بعض الأمثلة لوصف اتجاه النّقد العام للكنيسة، الذي تولّـــد نتيجـــة ســـيطرة الكنيسة على مقاليد الأمور، وتعصبها ضد الفكر المخالف. والواقع أنّ هذا النّقد كان هو المحرك لتلك الحركات الإصلاحية التي ظهرت فيما بعد تنادي بإصلاح الكنيسة. فهو الذي حدا ببعض المفكرين المسيحيين أن يوجهوا سهامهم النّقدية صوب الكنيسة، ويجهروا بعدم الثّقة بأمور آمنت بها الكنيسة وفرضتها على النّاس فرضا طوال فترة العصور الوسطى.

---

[1]- جون لوريمر،تاريخ الكنيسة،مرجع سابق،ص51 – 53.

[2]- المرجع نفسه،ص 55 – 56.

[3]- رؤوف شلبي،أضواء على المسيحية،دط، منشورات المكتبة العصرية،بيروت،لبنان،دت،ص131–132.

المطلب الثّاني: اهتمام المسيحيين بالعلم التّجريبي

إنّ للنمو السّكاني نتائج لا تحصى، إذ لابد من تغذية النّاس وإلباسهم وإسكانهم، فأخذ النّاس يصلحون الأراضي التي كانت غير مزروعة، ويوسعون القرى ويبنون المدن. وكانت الهجرة الرّيفية تجلب إلى المدن الجديدة سكانا ما لبثوا أن فجّروا البنى القديمة، ومن جهة أخرى، وتلبية للحاجات الجديدة، ظهر نشاط حرفي، لا بل صناعيّ في بعض القطاعات (النّسيج والبناء)، وكان يقوم بوجه خاص على انتشار طاحون الماء وتطبيقاته، ونتج عن ذلك تخصيص في العمل، فانتشرت الفرق المهنية، وأدى هذا إلى الغليان الاجتماعي والتّقني والاقتصادي والتّجاري إلى خلق حاجات جديدة في نظام المعرفة. وفي ذلك الوقت ظهر في الغرب من نسمّيهم اليوم "المفكرين".

لقد كان الرّهبان يوزعون الثّقافة، ولكن لم يكن هذا العمل وظيفتهم الأساسية، إذ إنّهم كانوا بحكم دعوتهم، رجال الصّلاة والتّبشير، وكانوا مسئولين عن النّفوس وملزمين بإرشاد المؤمنين إلى الخلاص. أمّا النّشاط الفكري، فلم يكن سوى مهمّة ثانوية يضعونها في خدمة رسالتهم.

إنّ الانطلاقة التي عرفها القرن الثّاني عشر للميلاد، هي التي ولدت الاختصاصيين الحقيقيين في الثّقافة (المفكرين)، وقد ارتبط ذلك بظاهرتين متزامنتين كثيرا ما فصل بينهما، وهما انطلاقة المدن والتّغيّرات التي طرأت على النّظام الإقطاعي، فإلى جانب طبقة أرستقراطية عسكرية، نمت طبقة نصراء للآداب، إذ أصبح المولى مستهلكا وممولا للأعمال الأدبية والأعمال الفنية، وفي الوقت نفسه تقريبا، أصبحت المدينة مكان استهلاك وإنتاج للثّقافة، فبدأ التّجار يشعرون بحاجة أن يُحسنوا القراءة والكتابة والحساب. واتّخذ النّشاط الفكري فيما بعد استقلاله، فأصبح شيئا فشيئا وظيفة خاصة يقوم بها رجال الدّين، إذ جعلوا من التّفكير والتّعليم والكتابة وظيفتهم الأولى، فأصبحت الحياة الفكرية عملا كسائر الأعمال، عملا يستحق راتبا. والأداة التي يرتكز عليها هذا النّشاط الفكري هي أداة العقل، والمقصود بها هو الانتقال من الفكر الرّمزي إلى الفكر العقلي الذي سيتناول حقل المعرفة كله –بما فيه المعرفة الدّينية– بدقة جديدة يجوز أن توصف بالعلمية.

أراد المفكر في القرن الثّالث عشر للميلاد أن يفهم ويفسر ويصف ويجمع الوسائل التي أصبحت في تصرفه ، بفضل العودة إلى منطق أرسطو الذي لم يكن معروفا حتى ذلك الحين إلاّ جزئيا. وعليه هذه أهم ظاهرة طرأت على مجتمع القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر الميلادي، فقد ظهر نمط جديد للتّفكير، لا للكلام المقدس بعد اليوم، لكلام آمر يقع على المؤمنين من شفاه أناس

يسيطرون على المجتمع الدّيني، أي الأسقف والرّاهب والكاهن، أو لكلام ملك وموال يقع على الشّعب بعد اليوم، لا يقبل كلام ما لم يُبرّر، وبالتّالي أصبح كل تعليم موضع جدل [1].

لم تكد الدّراسات والمعارف الجديدة تنتشر في غرب أوربا حتى فزعت الكنيسة خشية أن تصرف تلك المعارف النّاس عن اللاّهوت والدّين؛ حتى اضطرت الكنيسة إلى إحراق بعض البحوث العلمية في هذه الفترة ووصفتها بأنّها من البحوث الشّيطانية. ولمّا كان من الصّعب أن تمنع الكنيسة تداول تلك العلوم ودراستها فقد لجأ رجالها إلى محاولة التوفيق بينها وبين اللاّهوت، مثلما حدث من قبل بالنّسبة للفلسفة اليونانية، فقد وضحت الحاجة إلى ضرورة التّوفيق بين الأفكار والمعتقدات الدّينية والاهتمامات الدّنيوية، أي التّوفيق بين مطالب الإيمان ومطالب العقل الإنساني. وهكذا بدأت صحوة حضارية في العالم المسيحي الأوروبي. والتي سنتحدث عنها بشيء من التّفصيل من خلال النّقاط الآتية:

1) اهتمام الملوك والأمراء بالعلم

لقد وصف شعراء "سمرقند "[2] في القرن الثّاني عشر الميلادي، واسمه "نظامي عروضي"[3] بلاط الملوك، فقال إنّ تنظيم البلاط تنظيما صحيحا يتطلب وجود أربع فئات من المثقفين هم: رجال الإدارة والسّياسة، والشّعراء، والفلكيون، والأطباء. فرجال السّياسة يساعدون الملوك في تصريف شؤون الدّولة، والشّعراء يمجّدون مآثرهم ويخلّدون انتصاراتهم، ورجال الفلك يحدّدون للملوك الأوقات المناسبة لتنفيذ مشاريعهم، والأطباء يسهرون على سلامتهم ورعاية صحتهم. ويبدو أنّ هذه القاعدة لم يأخذ بها ملوك الشّرق وحدهم في العصر الوسيط، وإنّما طبقها أيضا أمراء الغرب وملوكه، وإن كان تطبيق هذا المبدأ في الغرب جاء في صورة أصغر بكثير ممّا كانت عليه في الشّرق، ومهما يكن الأمر فإنّ استعانة الملوك بهذه الفئة من المثقفين، وحرصهم على

---

[1] – الأب صبحي حموي اليسوعي،تاريخ الكنيسة المفصل،ط1، دار الشرق،بيروت،لبنان، 2002م،ص222– 223 .

[2] – ثانية كبريات مدن جمهورية أُوزبكستان. عدد سكانها 515,000 نسمة. تعتبر المدينة مركزًا تعليميًا. وتنتج مصانعها الأجزاء المكونة لأجهزة المذياع والمنتجات الحريرية وصناعة الجرارات. تقع سمرقند مكان مدينة **مراكانده** القديمة التي دمَّرها الإسكندر الأكبر عام 329ق.م. فتحها المسلمون في القرن الثامن الميلادي واختارها القائد المغولي تيمورلنك في القرن الرابع عشر الميلادي عاصمة له. راجع: (الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق، ج13، ص99).

[3] – شاعر إيراني (1141؟-1217م؟). يعتبر من أعظم الشّعراء الرّومانتكيين في الأدب الفارسي. يحفل شعره بالتّأملات في الحياة والنّاس، ويتكشّف عن حبّ للطّبيعة لا يُضارع . أشهر آثاره: "ليلى والمجنون"، وملحمة "خسرو و شيرين" الرّومانتكية وقصيدة تعليمية موسومة باسم "مخزن الأسرار". راجع: (معجم أعلام المورد، مرجع سابق، ص455).

تقربهم منهم والاحتفاظ ببعضهم في بلاطهم، يؤدي من دون شك إلى اكتساب البلاط طابعا حضاريا خاصا.

وقد بدأ بلاط الأمير الإقطاعي في العصور الوسطى بسيطا في تنظيمه. فمن النّاحية الثّقافية كثيرا ما كان الأمير بنفسه يجهل القراءة والكتابة، ولذا احتفظ في بلاطه بقسيس على الأقل ليقوم على شؤون الدّين ويحرّر المكاتبات الضّرورية. على أنّ زيادة الأعمال في بلاط الأمير وكثرة المكاتبات والحسابات، تطلب بمضيّ الوقت وجود أرشيف وسكرتير. و لم يكن من المألوف حتى القرن الثّاني عشر الميلادي أن يوجد بالبلاط الإقطاعي مثقف أو مربي للعناية بعقول صغار الأمراء، لأنّ الحرص على تعليم الأمراء كان أمرا نادرا في تلك العصور[1].

ومن بين الذين أولوا عناية فائقة بالتّعليم نجد "شارلمان"[2] رائد النّهضة "الكارولنجية"، كان شغوفا بشتى فروع العلم والمعرفة حفيّا بالعلم والعلماء، معنيّا بوضع أسس نهضة كبيرة، ولذلك جعل بلاطه في "آخن"[3] (إكسن لاشابل) ملتقى لأبرز علماء العصر وأكثرهم شهرة وعلما، فجمع حوله العلماء من كافة أنحاء أوربا مثل: "ألكوين" من "يورك" [4] في إنجلترا و "بولس اللمباردي"من "لمبارديا" و "جون سكوت" من أيرلندا و "بطرس البيزي" بالإضافة إلى سكرتيره ومؤرخه الشّهير "إينهارد".

ولقد كانت النّهضة الكارولنجية تعليمية ابتغى بها شارلمان تعليم النّاس وتثقيف رجال الدّين والتّرقي بهم وجعلهم في مستوى لائق بالمهمة التي وكّلت إليهم[5]. وقد اختار شارلمان أن

---

[1]- محمّد الخطيب،حضارة أوربا في العصور الوسطى،ط1،دار علاء الدّين للنّشر والتّوزيع والتّرجمة،دمشق، سوريا،2006م،ص21–22.

[2]- أشهر حكام العصور الوسطى، وشخصية رئيسية في التاريخ الأوروبي (742-814م). يسمَّى تشارلز الأكبر، وقد احتل جزءًا كبيرًا من أوروبا الغربية ووحَّدها في إمبراطورية واحدة عظيمة. أحيا شرلمان الفكر السياسي والثّقافي في أوروبا الذي كان قد اندثر بعد سقوط الإمبراطورية الرّومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي. وقد وضعت أنشطته حجر الأساس للحضارة الأوروبية التي ازدهرت في أواخر العصور الوسطى. راجع (الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق،ج14،ص 17).

[3]- مدينة صناعية بألمانيا، يُطلق عليها الفرنسيون اسم **اكس لاشابيل**، وعدد سكانها 238,587 نسمة. وتقع هذه المدينة قرب الحدود الألمانية مع كل من هولندا وبلجيكا. راجع (الموسوعة العربية العالمية، نفس المرجع،ج1،ص 359).

[4]- فرع من العائلة المالكة الإنجليزية من البلانتاجيني (اسم لأحد أعضاء الأسرة المالكة التي حكمت إنجلترا من عام 1155-1485م). راجع (الموسوعة العربية العالمية، ج 27،ص 366) .

[5]- محمّد محمّد مرسي الشيخ، النّظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية،مصر، 1996م، ص303– 304.

يسلك الطّريق الطبيعي للإصلاح، وهو البدء بتعليم رجال الدّين من القساوسة والرّهبان تعليما يحق لهم الوصول إلى درجة كافية من الثّقافة التي تمكّنهم من إصلاح أنفسهم أولا ثمّ إصلاح المجتمع الذي يعيشون وسطه بعد ذلك. وتبدو هذه السّياسة واضحة في الرّسالة التي أرسلها شارلمان إلى "بوجلف" مقدم "دير فولدا" سنة 787م، والتي يقول فيها: (... لاحظنا أنّ كثيرا من الرّسائل التي يبعث بها إلينا رهبان الأديرة تتسم بضعف الأسلوب وكثرة الأخطاء، رغم ما تفيض به هذه الرّسائل من إخلاص وولاء نحونا. ويرجع السّبب في ذلك إلى نقص التّعليم وضعف المستوى الثّقافي لرجال الدّين...لذلك ننصح بأن تهتم جميع الأديرة والأسقفيات في بلادنا بالعلوم والآداب فضلا عن عنايتها بشؤون الدّين...فالفرد بدون علم لا يستطيع أن يعمل عملا طيّبا، لذلك يجب علينا أن نعلم قبل أن نعمل...كذلك ننصح بالعمل على تبسيط الكتابات والمخطوطات الدّينية وإزالة ما يحيط بها من غموض...ولا يفوتك أن ترسل صورا من هذا الخطاب إلى جميع زملائك وبقية الأديرة إذا كنت تريد أن تظل متمتعا بعطفنا).

وقد نتج عن هذه السّياسة تنظيم التّعليم وتقويمه في الأسقفيات والأديرة. وإلى ذلك العصر يرجع تاريخ معظم المدارس الدّيرية الكبرى مثل "فولدا" و "وفونتنيل" و "فرير" وغيرها من المدارس التي أحرزت شهرة واسعة فيما بعد، والتي تخرّج منها كثير من الرّجال المبرّزين في القرن التّاسع. وهكذا أصبحت الأديرة مركزا للنّشاط العلمي والثّقافي في أوربا. وقد أدت هذه الحركة أيضا إلى انتعاش مكتبات الأديرة وتكاثر الكتب بها، ممّا ظهر أثره واضحا في الفترة المظلمة التي حلت بأوربا بين سنتي 850م – 1000م عندما ظلت الأديرة بمثابة المراكز الوحيدة التي يشع منها نور المعرفة في غرب أوربا[1].

بالإضافة إلى شارلمان ظهرت شخصية أخرى كان لها الدّور الكبير في ترقية العلم، وهي شخصية "ألكوين" وهو علم من أعلام النّهضة الكالولنجية والذي يعتبر مرآة صادقة لتلك النّهضة، وترجع شهرته إلى شخصيته الجذابة وقوّة تأثيره على سيّده شارلمان، وجهوده في نشر الثّقافة والنّهوض بالتّعليم، وسعة اطّلاعه وسمو فكره. درس بمدرسة "يورك" التي امتلأت بمختلف المؤلفات القديمة ذات الشّهرة البالغة. وقد ذكر هو نفسه أسماء المواد التي كانت تدرس عندئذ

[1] – سعيد عبد الفتاح عاشور،حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى،دط،دار النّهضة العربية للطّباعة والنّشر، بيروت،لبنان،1976م،ص58– 59 .

بمدرسة "دير يورك"، و منها النّحو والبلاغة والقانون والفلك والرّياضيات؛ هذا عدا العلوم الـــتي تتعلق بطبيعة الإنسان وطبيعة الأرض والبحار والحيوانات وغيرها.

ولاشك أنّ هذه العلوم فاقت كل ما عداها من ضروب المعرفة التي عرفت في غاليا وإسبانيا في ذلك العصر. ومن مجهودات "ألكوين" في مجال العلم أنّه بدأ بتصحيح المخطوطات القديمة، ثمّ أعقب ذلك بإصلاح المدرسة الدّينية ونشر التّعليم، هذا فضلا عمّا قام به نفسه من جهود في تعليم الغير. وكانت نسبة كبيرة من المخطوطات والمؤلفات الكلاسيكية قد تعرّضت فيما بين القـــرنين السّادس والثّامن لكثير من التّحريف والأخطار، وذلك نتيجة للجهل الذي عمّ تلك الفترة، وقد ترتب على ذلك اختلاط صفحات بعض هذه المخطوطات وضياع ترتيبها بين أيدي مالكيها، بل ضاعت بعض تلك الصّفحات نهائيا في حين ظهرت البقية الباقية، وقد خلت من أبسط قواعـــد الكتابة واللّغة وكثرت فيها الأخطاء نتيجة لجهل النّسّاخ، وهنا تبدو أهمية ألكوين في تصحيح تلك المخطوطات –لا سيما الدّينية منها– فكرّس جزءا كبيرا من حياته في تنظيمها، كما أخذ يوصي تلاميذه بالعناية بالكتب الكلاسيكية وتصحيحها، أمّا عن جهوده في نشر التّعليم والإكثار مـــن المدارس الدّينية ورفع مستواها، فكانت هي الأخرى عظيمة بالغة الأثر[1].

والواقع إنّ رعاية الملوك والأمراء للحياة الثّقافية غدت أمرا له أهمية في عصـــر لم يعـــرف الطّباعة وسادت فيه عملية النّسخ، وهناك أمثلة عديدة لملوك أوروبيين في العصور الوسطى عُرفوا بحبهم للعلم والثّقافة، حتى جعلوا من بلاطهم مراكز ثقافية ممتازة، ومن أبرز الملوك في مجال دعم النّشاط الحضاري في العصور الوسطى كان "هنري الثّاني" ملك إنجلترا (1154-1189م) الذي امتدت دولته من أسكتلندا شمالا حتى جبال البرانس جنوبا، وأظهر شغفا كبيرا للعلم والعلمـــاء، وحرص على أن يلّم بعديد من اللّغات.

وقـــد أدى حبه للتّاريـــخ إلى وفرة المؤرخين في بلاطه، كما اهتـــم بالقانون والدّراسات القانونيـــة، وأجزل العطاء للعلم والعلماء[2]، وتتضح رعاية هنري الثّاني للثّقافة والعلم في ترحيبـــه بالوافدين إلى بلاطه من العلماء ورجال الدّين الأجانب. وهناك في السّجلات الملكية المعاصرة ما يشير إلى أنّه أعطى أحد رجال الدّين الوافدين إلى بلاطه سنة 1164م هبة مالية كبيرة، كما أنّ وفدا نرويجيـــا آخر نـــزل في ضيافـــة المـــلك أكـــثر من أربعـــة أشهر سنـــة 1182م. وأبرز

[1]- سعيد عبد الفتّاح عاشور،حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص56 وما بعدها.

[2]- سعيد عبد الفتاح عاشور،حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص9–10.

شخصية ظهرت في إنجلترا في ذلك العصر كانت بلا شك "حنا سالسبوري" الذي درس الجدل والنّحو والمنطق وغيرها من العلوم، ثمّ عاد إلى إنجلترا سنة 1150م ليتمتع بعطف هنري الثّاني في الوقت الذي كان "ماستر فكاريوس" يدرّس القانون و "ثيوبولد" يرعى تدريس الآداب في كاثدرائية "كانتربوري".

وقد أشار "بكت" – رئيس أساقفة كانتربوري – على سيده "هنري الثّاني" باستدعاء العلماء وطلاب العلم الإنجليز الذين يدرسون بالخارج، فلما عاد هؤلاء حاولوا إيجاد نوع من التّعليم العالي في إنجلترا يشبه ما شاهدوه في الجامعات النّاشئة بالقارة، وبخاصة في فرنسا وإيطاليا، وهكذا شهد عهد هنري الثّاني تقدما كبيرا في تطوّر نظم التّعليم في إنجلترا، ترتب عليه قيام جامعة أكسفورد، أولى الجامعات الإنجليزية. أمّا بلاط ملوك صقلية منذ القرن الحادي عشر، فكان يغلب عليه الطّابع الشّرقي –البيزنطي والعربي– كما كان هو الآخر مركز نشاط علمي كبير، فاكتظّ بالفلكيين والشّعراء والأطباء وغيرهم من العلماء ذوي اللّهجات المتباينة، ويلاحظ على سجلات هذه المملكة أنّها خليط من اللّغات اللاّتينية واليونانية والعربية، الأمر الذي أدى إليه موقع الجزيرة الجغرافي والتقاء الثّقافات الثّلاث بها. وكان أن اهتم ملوك صقلية النّورمان بتشجيع العلماء واستدعائهم إلى بلادهم حتى أصبح ذلك البلاط قبلة الأدباء والشّعراء والباحثين.

ويُحكى عن "روجر الثّاني" أنّه استدعى الجغرافي العربي الإدريسي إلى بلاطه حيث عهد إليه بعمل نموذج مجسم كبير للكرة الأرضية. كذلك يُعرف عن خليفته "وليم الأول" أنّه عهد إلى كبار العلماء والمترجمين المعاصرين مثل "أرستبوس" و "أيوجين" بالإشراف على الإدارة الملكية في "بالرمو". وهكذا ظل الحال حتى عهد الإمبراطور "فردريك الثّاني"؛ الذي يعتبر من النّاحية الحضارية امتدادا لعصر ملوك النّورمان بصقلية وجنوب إيطاليا ،ذلك أنّ فردريك الثّاني لم يكتف بتنظيم كلية الطّب في "شالرنو"، وإنّما أنشأ جامعة في "نابولي" سنة 1224م، واستدعى إليها الأساتذة في مختلف العلوم والفنون من جميع الأنحاء ، ومنحها كثيرا من الامتيازات والمساعدات المادية والمعنوية. وهكذا حرص فردريك الثّاني على تشجيع الحياة الثّقافية في مملكته، ولا عجب، فقد حكى المقريزي عن ذلك الإمبراطور أنّه كان "عالما متبحرا في علم الهندسة والحساب والرّياضيات" كما حكى عنه أنّه عندما حضر إلى الشرق سنة1227م في حملته الصّليبية، كان يصاحبه "معلمه من صقلية يقرأ عليه المنطق" وقد أجمعت المراجع المعاصرة على أنّ فردريك الثّاني تعلّم اللّغة العربية على يد معلم عربي في صقلية، وبذلك أصبح بلاطه مركزا لحركة

علمية واسعة، واجتمع فيه عدد كبير من العلماء الغربيين واليونانيين فضلا عن اليهود الذين اشتغلوا تحت رعاية فردريك الثّاني بترجمة كتب الفلسفة العربية [1].

وعليه فقد لعب الأمراء والملوك دورا كبيرا في انتعاش حركة العلم، وذلك بالرّعاية الكبيرة التي أولوها للعلم والعلماء، والمجهودات الجبّارة التي بذلوها في سبيل ذلك ، فأسهموا بذلك في بزوغ نور العلم والقضاء على ظلمات الجهل، ومهدوا الطّريق أمام العلم الحديث الذي نشهده الآن.

2) دور الأديرة في التّعليم:

لقد كان الرّهبان في حاجة إلى القراءة، وإنّهم لذلك كانوا في حاجة إلى تعلّم القراءة وفي حاجة إلى الكتب. ولّما كانت الكتب تنسخ ولا تطبع، كذلك احتاجوا إلى تعليم بعض الصّبيان القراءة والكتابة ليقوموا بعملية النّسخ، ومن هنا نشأت مدارس الأديرة، وقد مرت هذه المدارس بأطوار مختلفة من حيث تلاميذها ومناهجها ومدة الدّراسة فيها، واختلفت تبعا لذلك قيمتها ونتائجها[2].

وقد بدأت نهضة القرن الثّاني عشر الميلادي في المدارس الدّيرية البندكتية التي اهتمت بالتّعليم ونسخ المخطوطات ودراسة الأدب. وفي معظم الأديرة البندكتية وجد النّسّاخ المهرة والكتّاب البارزون، ومن بينهم الرّهبان المهتمون بالشؤون العلمية. وفي داخل الأديرة خصصت قاعات للمهتمين بالكتابة والقراءة والتّأليف، أطلق عليها الاسم اللاّتيني "سكربتوريا" "Scriptoria " أي مكان النّسخ. ولم تغفل الأديرة الكولونية قصة التّعليم ودراسة الأدب، وإنّما شجعتها وتولتها بالرّعاية. فلقد ألحقت بمعظم الأديرة الكولونية المدارس لتعليم الأولاد الذين يرغبون بالدّخول في سلك الكهنوت أو في خدمة الحكومة [3].

والواقع أنّ التّعليم في أول الأمر كان في هذه المدارس دينيا مقصورا على الرّهبان أو من مآلهم الرّهبنة من الصّبيان، وكان هؤلاء وأولئك يتعلمون أمور الدّين ومبادئ القراءة والكتابة والحساب، ويدربون على الغناء، وكان كل ذلك يتمّ في فترة قصيرة غير كافية لإتقانها. وعندما سنّت القوانين التي تقضي بألاّ يقل سنّ الرّاهب عن ثماني عشر سنة، وأن يقضي الصّبي في

---

[1]- محمّد الخطيب،حضارة أوربا في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص23–25.

[2]- محمود سعيد عمران،حضارة أوربا في العصور الوسطى،ص 262.

[3]- محمود سعيد عمران،حضارة أوربا في العصور الوسطى، مرجع سابق،ص 309.

مدارس الأديرة سنتين قبل أن يكون راهبا، فقد كان من الطّبيعي مع هذا القيد أن تطول مدة التّعليم بمدارس الأديرة؛ لأنّ الكثير من الصّبيان يدخلون الأديرة قبل سنّ الثالثة عشر[1].

ولقد جرت عادة هذه المدارس على أن تقبل أنواعا من الطّلاب بعضهم أعدوا أنفسهم ليكونوا رهبانا داخل الدّير، ولهذا سمّوا بالدّاخليين أو Anterni، وكذلك العمل كرجال دين خارج الدّير ولهذا سمّوا بالخارجيين أو Externi، والبعض الآخر كانوا لا يرغبون الاشتغال بالدّين إطلاقا. وهكذا لم تكن المدارس الدّيرية في هذه الفترة قاصرة على تعليم الدّيريين، بل إنّها استقبلت طلابا للعلم من غير الدّيريين لأول مرة في تاريخها. ومنذ القرن التّاسع الميلادي غدا لكل دير مدرستان منفصلتان، إحداهما للدّريين المتفرغين للعبادة، والأخرى للطّلاب الخارجيين. وكان نظام التّأديب الذي اتّبعه الرّهبان والقساوسة في تأديب تلاميذهم صارما، فلا يحصل الطّلاب الدّاخليين على فرص للّعب إلاّ قليلا، كما كان الهدوء يسود الأديرة حتى في فترات الرّاحة بين الدّروس، واستخدام العصا والصّوم الإجباري والحبس، كلها كانت من وسائل العقاب المألوفة. كما أنّ تعليم العلمانيين لم يكن له نظام ثابت ممّا ترتب عليه بقاء أغلب من التحق به جهّالا لا يعرفون القراءة والكتابة، لأنّ التّعليم في تلك المدارس كان يجري بقسوة وحزم شديدين للمحافظة على النّظام واحترام القائمين على التّعليم، على الرّغم من ضعف هؤلاء وانخفاض مستواهم العلمي.

كما أنّ الدروس كانت تلقى شفهيا بسبب ندرة الكتب وارتفاع أسعارها وغلوّ أثمان الورق[2]. وعلى أيّة حال فإنّ تلك المدارس ظلت قليلة وظل التّعليم بها أوليا مقصورا على الرّهبان والأولاد الذين وهبوا حياتهم للرّهبنة في نهاية القرن الثّامن الميلادي، ثمّ كثرت وارتقى بها التّعليم وعمّ خيرها الرّهبان والمرشحين للرّهبانية وسواهم، وذلك بفضل النّهضة التي قام بها "شارلمان". والمهم أنّ مدارس الأديرة بقيت المعاهد الوحيدة للتّعليم تقريبا حتى القرن الحادي عشر الميلادي، كما بقيت مناهج التّربية بلا تغيير يذكر حتى القرن الثّالث عشر تقريبا، وبمعنى آخر أنّ كل دير كان "مدرسة"، وأنّ التّربية كانت بالدّير أو تحت إشراف الرّهبان. ولمّا كان الأوروبيون في هذا الوقت أكثر ميلا إلى الحرب والتّدمير لا إلى التّربية والتّعليم، فلا لوم على

[1] - المرجع نفسه،ص 262 – 263.

[2] - محمّد محمّد مرسي الشيخ،النّظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص 110–111.

الأديرة لأنّها لم تقـــدم أكثر ممّا قدمت، وكفاها فضلا أنّها حافظت على كثير من العلوم من أن تعدو عليها عوادي النّسيان، أو أن تمتد إليها أيدي الضياع والفناء[1].

وهكذا كانت مدارس الأديرة مدارس بدائية، كما كان التّعليم فيها بسيطا، لكنها بالمقابل أسهمت في تقدم الحركة العلمية، وأدى انتشارها في أنحاء كثيرة من غرب أوربا إلى جعلها مراكز الإشعاع العلمي في ذلك الوقت.

3) العلوم:

لقد كانت معلومات غرب أوربا في مسار العلوم محدودة حتى نهاية القرن الحادي عشر، و لم تكن تتجاوز مختصرات "إيزيـــدور" "Isidor" و "بيده" "Bede" وبعـــض مؤلفات قدامـــى الرّومان. ولكن خلال القرن الثّاني عشـــر الميـــلادي، وبعد نقل العلوم اليونانية والعربيـــــة إلى اللاّتينية، أقبل الأوروبيون على دراسة الرّياضيات والفلك والكيمياء وحصلوا فيها على كتابات إقليدس وبطليموس السّكندري وما كتبه العرب أنفسهم، وفي الطّب حصـــلوا علـــى كتابـــات جالينوس وهيبوقراط وابن سينا. هذا وقد بدأ ظهور الطّريقة التّجريبية في مناهج البحث، ومع أنّ كتابات ومناهج إيزيدو وبيدو وأمثالهما ظلت قائمة ولها تأثيرها القوي في غرب أوربا إلى ما بعد القرن الثّاني عشر بمدة قصيرة.

ونستطيع أن نجمل الذي حدث في القرن الثّاني عشر أنّه إلى جانب المعلومات المعروفة التي أبقى عليها الغربيون، أخذوا يتعرفون على التّراث اليوناني العلمي وعلوم العرب الجديدة، ومـــع كثرة ما تعرف عليه الغرب من معلومات، تطلب الأمر تقسيمها وتصنيفها، ومن ثمّ بدأ يظهـــر نوع من التّخصص العلمي[2].

وفيما يلي بعض العلوم وما حققته من تقدم في القرن الثّاني عشر. ففي العلوم الرّياضـــية لم يهمل التّعليم في العصور الوسطى الحساب والهندسة والفلك. ولكن هذه الدّراسات اســـتمرت بسيطة وبدائية حتى أوائل القرن الثّاني عشر، عندما ظهرت ترجمة لاتينية لما كتبـــه إقليـــدس في الهندسة. ويبدو أنّ هذه التّرجمة لم تأخذ عن الأصل اليوناني وإنّما عن التّرجمة العربية. ومهما كان الأمر، فقد كان لظهورها أثر كبير؛ إذ رفعت من شأن علم الهندسة وجعلت هذا العلـــم يتبـــوأ

[1] – محمود سعيد عمران، حضارة أوربا في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص 263.

[2] – محمود سعيد عمران،حضارة أوربا في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص233.

مكانته التي لا يزال يشغلها حتى اليوم. وفي سنة 1162م نقل"أديلارد الباثي" جداول حساب المثلثات للخوارزمي إلى اللاّتينية.

وفي سنة 1145م نقل "روبرت الشستري" كتاب الجبر للخوارزمي إلى اللاّتينية كذلك، وبذلك أدخل علما جديدا إلى غرب أوربا. كذلك نقل أحد يهود إسبانيا في القرن الثّاني عشر – إبراهيم بن عزرا (1097م– 1167م) – بعض مؤلفات العرب في الفلك والرّياضيات إلى اللاّتينية. وأهم ما في ذلك أنّ شرح للأوروبيين نظام الأعداد العربي –أو بعبارة أصح الهندي– والأرقام التّسعة مع كيفية استخدام الصّفر.

وهناك من الباحثين من يعتقد أنّ هذا النّظام العددي انتقل عن طريق العرب إلى أوربا خلال عمليات التّبادل التّجاري بين العرب والأوروبيين، لا عن طريق الكتب الأكاديمية. ومهما كان الأمر، فالذي يهمنا هو أنّ معرفة أوربا للنّظام العددي الجديد أحدث ثورة في الحساب وساعدت على التّقدم الرّياضي الذي شهدته أوربا في ذلك العصر والعصور التّالية[1]. أمّا علم الجغرافيا فإنّ التّقدم الذي أحرزه في القرن الثّاني عشر كان محدودا نسبيا و لم تعرف أوربا كتابات الجغرافيين العرب أمثال المسعودي وابن حوقل والاصطخري في وقت مبكر، ومع ذلك نجد بداية محدودة لتعرف الأوربيين على دراسات العرب الجغرافيا وعلى رأسهم "الإدريسي" الذي كتب مؤلفه" نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" بناء على طلب"روجر الثّاني" ملك صقلية [2].

أمّا علم الفلك فالمخطوطات التي وجدت عنه في أوائل القرن الثّاني عشر بغرب أوربا لم تتعد معلومات "بدى" والرّياضي الكارولنجي "هلبرك" "Helperic ". وإذا ظهرت في الكتب الأوروبية عندئذ بعض الإشارات عن الإسطرلاب، فإنّ هذا لا يعني بأي حال معرفة الأوروبيين للفلك العربي في ذلك الوقت. ولكن حدث سنة 1120م أن بدأ أحد الإنجليز وهو "والشر" في حساب الدّقائق والثّواني، بعد أن تعلم ذلك من "بطرس ألفونسو" الإسباني اليهودي. وفي سنة 1162م ترجم أديلارد الباثي كتابات الخوارزمي في الفلك، وتبع ذلك مباشرة ترجمة كتابات البتّاني والفرغاني وغيرها من علماء المسلمين.

أمّا كتابات بطليموس السّكندري –وهي خلاصة ما وصل إليه القدماء في علم الفلك– فقد نقلت عن اليونانية حوالي سنة 1160م وعن العربية حوالي سنة 1175م. وما دفع

[1] – سعيد عبد الفتّاح عاشور، حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص 186.

[2] – محمود سعيد عمران،مرجع سابق،ص 234.

الأوروبيين للعناية بعلم الفلك عناية خاصة؛ ما لهذا العلم من أهمية في تحديد مواعيد الأعياد الدّينية. وهكذا ظهر علماء متخصصون في الفلك في الجامعات الأوروبية في القرن الثّالث عشر، كما حرص الملوك والأمراء على استشارة الفلكيين ليس فقط في المهام والأمور السّياسية، بل أيضا في دقائق حياتهم الخاصة[1]. وقد شهد القرن الثّاني عشر الميلادي تقدما في علوم الطّبيعة والكيمياء، كما شهد هذا القرن ترجمة الكثير من المؤلفات العربية الشّهيرة في الطّب، وكان المركز الرّئيسي في دراسة الطّب مدرسة "سالرنو" بجنوب إيطاليا، والتي يمكن اعتبارها أول معهد طبي جديد عرفته أوربا.

ومع كل هذا التّقدم في دراسة العلوم، نلحظ بداية ظهور روح البحث والتّجربة بين المعاصرين في القرن الثّاني عشر الميلادي. ومن بين علماء هذا القرن الذين اهتموا بالمشاهدة والملاحظة والتّجربة "أديلارد" الذي تنقل في النّصف الأول من هذا القرن بين بلاد البحر المتوسط ساعيا وراء المعرفة، واكتسب أثناء ذلك الكثير من نزعة العرب البيزنطيين الواقعية ومنهجهم التّجريبي في البحث. وقد جاء بعد ذلك الإمبراطور فردريك الثّاني 1250م، الذي اهتم بالعلوم اهتماما كبيرا، وطبق في البحث العلمي طريقة المشاهدة والتّجربة، وله في ذلك تجارب عديدة طريفة[2].

وبعد هذا العرض السّريع للعلوم يتبيّن لنا أنّ فترة القرون الوسطى قد شهدت حركة علمية، وبفضل هذه الحركة استطاعت أوربا القروسطية الخروج من حالة الجهل والظلام إلى نور العلم والمعرفة.

4) نشأة الجامعات:

إنّ الجامعات التي قامت ابتداء من القرن الثّالث عشر للميلاد، بدور مهم في تاريخ الغرب القروسطي من حيث الدّين والثّقافة، لم تخرج من العدم، بل نشأت من انتشار وتحول بعض المدارس التي وجدت منذ العصر الوسيط القديم، في مطلع القرن الثّاني عشر. كانت هذه المدارس قليلة العدد ومن مستوى كثيرا ما كان دون الوسط[3].

---

[1]- سعيد عبد الفتاح عاشور،حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص 187.

[2]- محمد الخطيب،حضارة أوربا في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص161 – 162.

[3]- الأب صبحي حموي اليسوعي، تاريخ الكنيسة المفصل، مرجع سابق، ص230.

لا خلاف أنّ تأسيس الجامعة بمعناها المعروف في كل العصور يعتبر – حسبما أوضح كل من "ما سكتر" و "لامونت" وغيرهما من المؤرخين المعنيين بهذه النّاحية – من أهم الآثار الفكرية التي أنتجتها العصور الوسطى في دائرة العلم والتّعليم. إذ ليس هناك فيما سبق في التّاريخ القديم أيام اليونان والرّومان القدماء ما يدل على وجود هذه الفكرة الجامعية التي عرفت لأول مرّة في القرون الوسطى. بل إنّ التّاريخ القديم بكل ما وصل إليه من التّقدم والازدهار وما حققه من رقيّ في شتى نواحي الحضارة الفكرية لم يكن فيه جامعة واحدة بالمعنى الذي نفهمه، وقد أصبحت تلك الجامعات مراكز علمية تفيض بالحيوية والنّشاط، الوقت الذي اجتذبت إليها الطّلاب من كل مكان في الغرب الأوروبي، وكان من بين أساتذتها أكثر رجال العصر مقدرة وألمعية وكفاءة[1].

على هذا يمكن القول إنّ الجامعات بشكلها ونظمها التي وصلت إلينا عبر القرون الطّويلة، تعتبر من مخلفات العصر الوسيط ومآثره، وهي تعبر –بحق– عن روح ذلك العصر الذي نشأت في ثناياه وترعرعت بين أحضانه، وكان يطلق عليها في العصور الوسطى الاسم اللاّتيني"StudiumGenerale" أي: المدرسة العامة، بمعنى أنّها كانت المكان العام الذي يستقبل طلاب العلم الوافدين إليه من جميع الجهات، حيث يتلقون قسطا من الدّراسات العليا في مختلف فروع المعرفة على أيدي أساتذة متخصصين أكفاء، وقد شاع لفظ "المدرسة العامة" عند مستهل القرن الثّالث عشر الميلادي، وهو الذي يعبر عن الجامعة في معناها الحديث، وهي بذلك تختلف اختلافا واضحا عن تلك المدارس المحلية المحدودة الضيّقة مثل المدارس التّابعة للمؤسسات الدّينية بمختلف أنواعها ومدارس القصور والفروسية [2].

وعلى هذا فالجامعات جاءت وليدة نهضة القرن الثّاني عشر العلمية، واتّساع نطاق المعرفة في ذلك القرن، وهي في الوقت نفسه من أهم مظاهر تلك النّهضة، فطالما اقتصرت الحياة العلمية في أوروبا على معالجة الفنون السّبعة الحرّة، لم تكن هناك حاجة إلى جامعات لأنّه لم يوجد ما يتلقاه الطّلبة أكثر من مبادئ النّحو والبلاغة والمنطق والحساب والفلك والهندسة والموسيقى، ولكن في المدة ما بين نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثّالث عشر تطورت الحياة العلمية في أوروبا تطوّرا كبيرا، نتيجة للعلوم والمعارف الجديدة التي تدفقت على الغرب،

[1] – جوزيف نسيم يوسف،نشأة الجامعات في العصور الوسطى،ط1،منشأة المعارف،الإسكندرية،مصر، 1971م،ص121.

[2] – جوزيف نسيم،نشأة الجامعات في العصور الوسطى،ص121–122.

والتي كانت أعظم من أن تتسع لها المدارس الدّيرية والكاثدرائية العتيقة، وبالتّالي أصبح لا بد من حدوث تطور نظم التّعليم العالي وقيام كلّيات جامعية تحتضن تلك المعارف الجديدة [1].

لقد كانت بعض المدارس الأسقفية أو الكاثدرائية قد أصابت شهرة كبيرة، ونمت مثيلاتها في أماكن مختلفة، وبدأت تعتني بالنّشاط الفكري في غرب أوروبا، ومن بين المدارس التي كانت أكثر شهرة في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي: مدارس سالرنو وبولونيا وباريس وشارتر، وتطورت هذه المدارس إلى جامعات خاصة في سالرنو وبولونيا وباريس ومونبلييه وأكسفورد، فأصبح الأمر ممهدا لظهور الجامعات في أوربا، فظهرت أولى الجامعات الأوروبية في القرن الثّاني عشر الميلادي في بولونيا بإيطاليا وفي باريس بفرنسا، ومنها تفرعت معظم جامعات شمال أوروبا وغربها، وكان هذا في أواخر القرون الوسطى[2]. وسنتطرق للحديث عن أهم هذه الجامعات بشيء من التّفصيل.

1- جامعة سالرنو:

في القرن الثاني عشر أضحت مدرسة سالرنو أول معهد طبي عرفته أوربا الغربية، وممّا ساعد على تقدم علم الطّب في سالرنو الكتابات الطّبية اليونانية التي ترجمها قسنطين الإفريقي من العربية (المترجمة عن اليونانية) إلى اللاّتينية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي. بالإضافة إلى ذلك "جيرارد الكريموناوي" من المؤلفات العربية في الطّب إلى اللاّتينية مثل كتاب "الملكي" لعلي بن عباس، وكتاب "القانون في الطّب" لابن سينا.

وفي القرن الثّاني عشر الميلادي اشتهر من أساتذة الطّب في جامعة سالرنو "جاريوبونتوس أورسو، وروجر، ونيقولا وغيرهم، وقد تجنب هؤلاء تشريح جسد الإنسان، لكنهم تركوا رسائل في تشريح جسد الخنزير، كما اهتموا بطب العيون، وعلم الصيدلة، وتركيب الأدوية، وفي سنة 1231م أصدر الإمبراطور "فردريك الثّاني" مرسوما يحرّم مزاولة الطّب أو تدريسه في أنحاء الإمبراطورية الرّومانية المقدّسة دون الحصول على شهادة ليسانس أو تصريح ملكي، ولا تعطى هذه الشّهادة إلاّ بعد امتحان على أيدي أساتذة جامعة سالرنو. وكان ذلك المرسوم أول اعتراف رسمي بجامعة سالرنو[3].

---

[1]- سعيد عبد الفتاح عاشور،حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص207-208.

[2]- محمد محمد مرسي الشيخ،النّظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص126.

[3]- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى،ص327.

وعلى الرّغم من الأهمية التي لعبتها جامعة سالرنو في تاريخ الطّب، إلاّ أنّها لم تترك أيّ أثر يكشف عن نمو وتطوّر النّظم في الجامعة، وإذا كانت جامعة سالرنو تعتبر أقدم من حيث الزمن، فإنّ جامعة بولونيا تمتاز بمكانة تضاهي زميلتها فيما يختص بتطوّر الدّراسات العليا[1]. والشّهرة التي لعبتها جامعة سالرنو ترجع حقيقة إلى منتصف القرن الحادي عشر، ولكن يبدو أنّ هذه الجامعة ظلت في شبه عزلة عن بقية غرب أوربا، و لم يتوافر لها من التنظيمات وأسباب النّمو والعظمة ما يجعل منها نموذجا يُحتذى به عن بقية الجامعات النّاشئة، وهكذا استمرّ الغموض يكتنف جامعة سالرنو ونظمها في القرن الثّاني عشر[2].

2- جامعة بولونيا:

تعدّ جامعة بولونيا من أهم جامعات البحر المتوسط وأوضحها من حيث النّشأة والنّمو، ويرجع سبب شهرتها كونها تميّزت ببيئة جغرافيا كبرى، ممّا جعلها مكانا صالحا لالتقاء العلماء وطلاب العلم، فاشتهرت بدراسة الفنون الحرّة في القرن الحادي عشر الميلادي، ولكن شهرتها في دراسة القانون لم تلبث أن ذاعت في القرن الثّاني عشر أيام: "أرنويوس"، وهنا يجدر الإشارة إلى أنّ جامعة بولونيا أصبحت أمّا لعدد من الجامعات في جنوب أوربا، كما أنّ جامعة "مونبلييه" تعدّ واحدة من بنات جامعة بولونيا، حيث اشتهرت هذه الجامعة بدراسة الطّب واللاّهوت والآداب والقانون[3].

ولقد كانت جامعة بولونيا معهدا متشعب الجوانب، ولو أنّها تستحق الذّكر باعتبارها مركزا لإحياء القانون الرّوماني، فكانت جامعة رفيعة القدر وهكذا أصبحت أنموذجا للتّنظيم الجامعي في كلّ من إيطاليا وإسبانيا وجنوب فرنسا، وبمرور الزّمن أصبحت بعض الجامعات ندا لجامعة بولونيا ومنافسة لها مثل جامعة مونتبلييه وجامعة أورليانز، وكذلك المدارس الإيطالية[4]. كما لا ننسى أن نذكر الدّور المسيطر الذي لعبته الكنيسة في التّدخل في شؤون جامعة بولونيا، حيث كان الأسقف هو من يعطي الموافقة على المتقدمين للدّراسات العليا في الجامعة[5].

---

[1]- جوزيف نسيم يوسف، نشأة الجامعات في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص246.

[2]- سعيد عبد الفتاح عاشور، حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص 211.

[3]- سعيد عبد الفتّاح عاشور،مرجع سابق، ص212-214.

[4]- جوزيف نسيم يوسف، مرجع سابق، ص246-254.

[5]- محمد محمد مرسي الشيخ، مرجع سابق، ص129.

3- جامعة فرنسا:

نشأت جامعة مونتبلييه في جنوب فرنسا في منتصف القرن الثّاني عشر الميلادي، وكانت إحدى بنات جامعة بولونيا الإيطالية، حيث استقت منها معظم نظمها وسارت على هديها، لاسيما فيما يتعلق بالدّراسات القانونية، ويرجع الفضل في نشوء دراسة القانون بالجامعة إلى أحد أساتذة القانون (واسمه بلا كانتيوس).

بالإضافة إلى تفوق جامعة مونتبلييه في علوم أخرى كالطّب واللاّهوت والآداب[1]. وقد نشأت جامعة باريس نشأة قوية حيث ترعرعت في مدارس كاثدرائية التي ساعدت على نموها وازدهارها، حتى أضحت من أعظم الجامعات آنذاك، فازداد عدد طلابها زيادة كبيرة، وهذا للشّهرة التي حازتها الجامعة دون غيرها، فتزايد نفوذها كثيرا حتى ظلت مدة ثلاثة قرون تجتذب إليها أكبر عدد من الطّلاب وأعظم الأساتذة الذين أشرفوا على تخريج أجيال من كبار رجال الفكر والعلم في غرب أوربا، مثل "أبيلارد" و"طوما الإكويني" و"روجر بيكون" وغيرهم، كما لايفوتنا ذكر الدّور الذي لعبته الكنيسة في التّدخل في شؤون جامعة باريس، فغدت في القرن الخامس عشر حصنا منيعا للتّدين القويم، على غرار جامعات أوروبية أخرى فقد تمتعت بقدر كبير من الحرية الأكاديمية ممّا جعلها تصبح من مراكز الدّراسات التّخصصية[2].

ويلاحظ أنّ جامعة باريس كانت تنمو بسرعة حتى جعلت من فرنسا زعيمة الحركة الفكرية في أوربا في العصور الوسطى، والحق أنّ جامعتي بولونيا وباريس هما الشجرتان اللّتان تفرعت عنهما ونظمت وفق نمطيهما باقي الجامعات الأوروبية[3].

وهكذا أخذ عدد الجامعات يزداد في مختلف بلدان أوربا الغربية، فنشأت في القرن الثّالث عشر سبع عشرة جامعة جديدة، وفي القرن الخامس عشر خمس وثلاثون جامعة. وهكذا تكاثرت الجامعات الأوروبية حتى بلغت في أواخر العصور الوسطى نحو ثمانين جامعة. ويرجع الفضل في

---

[1]- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص329.

[2]- محمد محمد مرسي الشيخ،النّظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص127-129.

[3]- سعيد عبد الفتاح عاشور،حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى،مرجع سابق،ص211.

نشأة الجامعـــات وتطوّرها إلى النّهضة الفكرية الكبيرة التي ظهرت في أوربا الغربية في القرن الثّاني عشر الميلادي، وبذلك نبعت من الجامعة جداول المعرفة التي روت المجتمع الغربي في الشطر المتأخر من العصور الوسطى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

موقف الإسلام من العلم التجريبي في القرون الوسطى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: عناية المسلمين بالعلم التّجريبي

لقد قدمت الحضارة الإسلامية منجزات كثيرة في مجالات شتى، وكان أهم ما قدمته هو العلوم المختلفة، وعلى وجه الخصوص "العلم التّجريبي"، فمنذ المراحل الأولى أقبل المسلمون على العلم والدّراسة، سيما وأنّ الإسلام يدعو إلى طلب العلم، وجعل للعلماء مكانة متميّزة. فاطّلع المسلمون على ما كان موجودا عند الأمم الأخرى في المجالات العلمية ، فاطّلعوا على علوم اليونان والرّومان، وترجموا الكثير من الكتب عن الأمم القديمة، فترجموا كتب اليونان في الرّياضيات والفلسفة، وترجموا كتب الهنود في الرّياضيات والفلك والطّب وغيرها، وقام المسلمون بعد ذلك بدراسة هذه العلوم وأثبتوا الكثير منها، كما صححوا كثيرا من النّظريات التي كانت شائعة عند بعض الأمم، فأصلحوا بعضها وقدموا أدلتهم على ذلك. ونتيجة للاهتمام الزائد من العلماء المسلمين بالعلوم التّجريبية، فقد تمكنوا من تطوير بعض المعلومات التي نقلوها عن غيرهم، واستخدموها في حياتهم اليومية، وتمكنوا كذلك من اكتشاف علوم جديدة قدموها إلى البشرية ونقلت إلى الأمم الأخرى، فبنى المسلمون بذلك حضارة علمية عظيمة شهد لها القريب والبعيد.

وبناء على ما سبق سنحاول الكشف عن معالم هذه الحضارة؛ وذلك بالإجابة عن التساؤلات الآتية: ما هي مكانة العلم في الإسلام (العلم التّجريبي) ؟، وكذا كيفية تعامل المسلمين مع هذا الأخير؟، وماذا قدموا في هذا المجال (العلم التّجريبي)؟، وفي الأخير ما مدى إسهامهم في تطوّر الحضارة العالمية الحديثة وازدهارها ؟.

المطلب الأول: المسلمون والعلم التّجريبي

أولا: القرآن الكريم والعلم

شغل لفظ العلم حيّزا مهما من آيات الذكر الحكيم، فقد ورد بمختلف اشتقاقاته نحو ثمانمائة وخمسون مرة (850)، منها أربعمائة (400) مرة دالة على العلم الإنساني، وهذا دليل على فضل العلم وبالغ أهميته،وإذا تتبعنا آيات القرآن الكريم نجدها تدعو إلى كل أنواع العلوم ،فلا تقصره على العلوم التي تتخذ من الملاحظة والتّجربة منهجا، ولا على العلوم الدّينية التي تقوم على الوحي، فالعلم في القرآن الكريم يشمل كل معرفة يزول بها الجهل عن عقل الإنسان،سواء كان موضوعه الكون، أم كان موضوعه الإنسان أم موضوعه الوجود والغيب، وسواء كانت وسيلة معرفته الحس والتّجربة، أم وسيلته العقل والبرهان أم وسيلته الوحي والنّبوّة[1].

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى الاهتمام بالعلم، وتبيّن قدر العلماء وفضلهم، ومن بين هذه الآيات ما يأتي:

نجد في القرآن الكريم دعوة عامة إلى الاشتغال بمختلف العلوم وهذا لقوله تعالى:﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)** ﴾[2]، فهذه الآية الأولى نزولا من القرآن الكريم، تشير إلى العديد من العلوم:كعلم تاريخ الإنسان،علم الأجنة، علم الاتصال، علم الأرض...، وهي من العلوم التي تتكاثف لبناء الحضارة[3].

- يقول اللّه تعالى :﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾[4].الرّاسخون في العلم هم أهل اليقين الثّابت الذي لا زلال فيه ولا اضطراب ،فهؤلاء يفيض اللّه تعالى عليم فهم المتشابه بما يتفق مع المحكم [5] وقد

---

[1]- محمّد عبد الباقي،المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ،ط3، دار الحديث، لقاهرة،مصر،1991،ص 596- 611.

[2]- سورة العلق:الآية 1- 5.

[3]- محمّد موسى بابا عمي،مطارحة معرفية مع بابا الفاتيكان،دط،معهد المناهج للنّشر والتّوزيع،الجزائر، 2007م،ص 36.

[4]- سورة آل عمران:الآية 7.

[5]- محمّد رشيد القلموني الحسني،تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)،دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،مصر، 1990م، ج3،ص138.

شرّف اللّه عزّ وجلّ العلماء، وميّزهم عمن سواهم. قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[1]. أي: هل يستوي العلماء والجهال؟ إنّما يتّعظ بآيات اللّه ويتدبرها أهل العقول السّليمة لا الجهلاء، فإنّ العالم الذي يُدرك الحق ويعرف منهج الاستقامة، فيتبعه ويعمل به، لا يستوي أبدا مع الجاهل الذي يخبط خبط عشواء، ويسير في متاهة وضلال[2]. ثمّ يصرّح القرآن الكريم بأنّ العلماء لهم درجات عند ربهم، وميزات يخصّهم بها. حيث قال: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[3]. أي يرفع اللّه المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، والعالمين منهم خاصة درجات كثيرة في الثّواب ومراتب الرّضوان[4]. وهذا كله دلالة على فضيلة العلم وأهميته في القرآن الكريم، والاهتمام بالعلماء وتوقيرهم، ودعوة إلى رفع شأنهم والارتقاء بهم إلى أعلى الدرجات.

– يقول اللّه تعالى: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[5] في هذه الآية الكريمة إشارة إلى فضيلة العلم والعلماء،لأنّ اللّه خصّهم بالذّكر من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته وملائكته، وجعل شهادتهم من أكثر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنّه يجب على المكلفين قبول هذه الشّهادة، العادلة، الصّادقة، وفي هذا من الفضل والشّرف وعلوّ المكانة، ما لا يقادر قدره. [6]

– يقول اللّه تعالى : ﴿ **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾[7].إنّما عليك أن تدعو ربك ليزيدك من العلم،

---

[1]– سورة الزمر:الآية 9.

[2]– وهبة الزحيلي،التّفسير الميسر في العقيدة والشّريعة والمنهج،ط2، دار الفكر المعاصر،دمشق، سوريا، 1998م،ج 23، ص259 .

[3]– سورة المجادلة:الآية 11.

[4]– أحمد المراغي،تفسير المراغي،ط1، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابا الحلبي وأولاده،القاهرة،مصر، 1946م،ج 28،ص 17.

[5]– سورة آل عمران:الآية 18.

[6]– عبد الرّحمان بن نّاصر السّعدي،تيسير الكريم الرّحمان في تفسير كلام المنان، حقيق:عبد الرّحمان بن معلا اللويحق،ط1 ، مؤسسة الرّسالة،دب، 2000م،ص 124 .

[7]– سورة طه:الآية 114 .

العلم، وأنت مطمئن إلى ما يعطيك لا تخشى عليه الذهاب، وما العلم إلاّ ما يعلّمه اللّه ؛ فهو الباقي الذي ينفع ولا يضيع، ويثمر ولا يخب[1]. وطلب الاستزادة من العلم من أهداف المسلم العظيمة .

- يقول اللّه تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** ﴾[2]. أي لا يفهمها ويتعقل الأمر الذي ضربناها لأجله، إلاّ العالمون باللّه الرّاسخون في العلم، المتدبرون، المتفكرون لما يتلى عليهم[3]. فالعلماء وحدهم من لهم القدرة على فهم مراد اللّه غزّوجلّ، وكشف وكشف كنه أوامره ونواهيه ؛ وهذا لما أوتوه من العلم والحكمة من قبل اللّه عزّوجلّ .

- يقول اللّه تعالى: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا** ﴾[4].أي وما أوتيتم يا محمّد، وجميع الخلائق من العلم إلاّ قليلا، فاللّه يُعلّم من علّمه بما شاء، ويدع ما شاء[5]. فالعلم المطلق للّه غزّوجلّ، أمّا علم البشر فقاصر محدود.

- يقول اللّه تعالى : ﴿ **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾[6].فهو قسم منه تعالى، وتنبيه لخلقه على ما ما أنعم عليهم من تعلّم الكتابة التي بها تُنال العلوم ؛ولهذا قال: ﴿ **وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾. قال ابن مسعود ومجاهد وقتادة: يعني: وما يكتبون[7]. فلا يقسم اللّه تعالى بشيء إلاّ لعظم شأنه؛ فالقسم بالقلم هنا دليل واضح وصريح على أهمية الكتابة ودورها في حياة الأفراد والمجتمعات.

- يقول اللّه تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾[8]. يعني العلماء الذين يخافون قدرته، فمن علم أنّه عزوجلّ قدير، أيقن بمعاقبته على المعصية، كما روى

---

[1]- سيد قطب،في ظلال القرآن،ط17،دار الشرق،القاهرة،مصر، 1992م،ص 2353 .

[2]- سورة العنكبوت:الآية 43 .

[3]- محمّد بن علي الشّوكاني،فتح القدير،ط1،دار ابن كثير،بيروت،لبنان ،1992م،ص 236 .

[4]- سورة الإسراء:الآية 85 .

[5]- أبو زيد عبد الرّحمان الثّعالبي،الجواهر الحسان في تفسير القرآن،تحقيق:محمّد علي معوض و عادل أحمد عبد الموجود،ط1،دار الموجود،ط1،دار إحياء التّراث العربي،بيروت،لبنان، 1998م ،ص 495 .

[6]- سورة القلم:الآية 01 .

[7]- ابن كثير،تفسير القرآن العظيم،تحقيق:سامي بن محمّد سلامة،ط2،دار طيبة للنشر والتّوزيع،دب ،1999 م،ج 8،ص187 .

[8]- سورة فاطر:الآية 28 .

على بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾، قال : الذين علموا أنّ اللّه على كل شيء قدير[1]. ومن الآيات التي تتضمّن دعوة القرآن الكريم إلى كل أنواع العلوم ما يأتي :

- يقول اللّه تعالى:﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ERROR: undefined
OFFENDING COMMAND: low

STACK:

-mark-
/kasrah

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية